دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
الله - الرسول - الإسلام



الإسلام

سعيد حوى

الجزء الرابع

طبعة شرعية مزيدة ومنقحه

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون : ٣٩١٧٤٧٠



الفصل الرابع

مؤيِّدات الإسلام

ذكرنا فى مقدمة الحديث عن هذا الأصل أن للإسلام مؤيدات.

والآن نحب أن نفصل هذه المؤيدات فنقول:

إن مؤيدات الإسلام تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - مؤيدات بشرية تتمثل بالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والحكم.

٢ - مؤيدات فطرية تتمثل بالعقوبة التلقائية التى تترتب على مخالفة أمر الله.

٣ - مؤيدات ربانية تتمثل بعقوبة القهر الإلهى فى الدنيا، أو بالثواب والعقاب فى الدار الآخرة.

وقد مر معنا تفصيل كامل للمؤيدات البشرية فى وضعها الإسلامى الصحيح.

ومر معنا أثناء الحديث عن السياسة العسكرية فى الفصل الثالث، وأثناء الحديث عن العقوبات المحددة وغير المحددة كالتعازير. ومر معنا بشكل مفصل فى كتاب «**جند الله ثقافة وأخلاقاً**».

ولذلك فإننا لا نجدنا بحاجة هنا فى هذا الفصل إلى الكلام عن المؤيدات البشرية التى افترض الله على المسلمين أن يقوموا بها من أجل إقامة دينه، وعلى هذا فسنقتصر فى هذا الفصل على الحديث عن المؤيدات الفطرية للإسلام والمؤيدات الربانية.

ونعنى بالمؤيدات الفطرية العقوبات التلقائية التى تترتب عفوياً نتيجة لأى انحراف عن أمر الله، لأنه لما كان الإسلام هو دين الفطرة البشرية: ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ [الروم: ٣٠] ولما كان الإنسان عندما يمشى فى غير طريق الفطرة يعذب ذاته فيشقى، وكلما أوغل فى الطريق غير الفطرى ازداد شقاؤه مهما كان فى الطريق الآخر من ملذات مآلها الضياع.

لذلك قال الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** ﴾ [طه: ١٢٤]. فالمعيشة الضنك فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة، وعبر عن الذين يسيرون فى طريق الكفر والضلال بأنهم يظلمون أنفسهم: ﴿ **فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [التوبة: ٣٦]، ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الزخرف: ٧٦]، ﴿ **ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١١٧] وما ذلك إلا لأنهم أوردوها الهلاك فى الآخرة والشقاء فى الدنيا.

أما المسلم فعلى العكس من ذلك يعيش بسعادة في الدنيا، وينعم بنعيم الآخرة.

قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٧].

وهذا الكلام قد يكون لأول بادرة عجيبا على بعض الأسماع، ولكنه الواقع الذى تشهد له كل وقائع الدنيا، ومهمتنا فى بحث المؤيدات الفطرية أن نبرهن من واقع الحياة البشرية عليه.

ونعنى بالمؤيدات الربانية:

ما يعاقب - الله عز وجل - به المنحرفين عن أمره فى الدنيا، وما يمد به المقبلين على طاعته من ألوان التأييد فيها.

وما أعده الله عز وجل للمنحرفين عن طاعته من عقوبة فى الآخرة، وما أعده لأهل طاعته من نعيم.

وعلى هذا فسينقسم هذا الفصل إلى قسمين:

القسم الأول: المؤيدات الفطرية.

القسم الثانى: المؤيدات الربانية.

والقسم الثانى ينقسم إلى فقرتين:

(أ) المؤيدات الربانية فى الدنيا.

(ب) المؤيدات الربانية فى الآخرة.

وقبل الحديث عن المؤيدات الربانية فى الآخرة سنتحدث عن اليوم الآخر ويقينية وجوده.

* * *

القسم الأول

المؤيدات الفطرية

إن هذا الإسلام يمثل سنن الله التى لا تستقيم الحياة البشرية إلا بها، وكما أن الإنسان إذا لم يتنفس يختنق، وإذا لم يأكل يموت لمخالفته سنن الله، فإن أى انحراف عن أىّ جزء من أجزاء الإسلام يحمل فى طياته عقوبته التى تحيق بالمنحرفين عنه. فمن رفض العبودية لله عاقبته سنن الله بأن تجعله عبداً للإنسان. ومن غش ليربح عاقبته سنن الله بأن يفقد الثقة ويخسر. ومن فرط فى واجب اليوم عاقبته سنن الله بمضاعفة التعب فى يوم آخر..

وهكذا فما من انحراف عن أى جانب من الإسلام إلا وتقابله عقوبة تليق به فى الدنيا، لأن الانحراف عن قوانين الله فى الكون والإنسان والاجتماع دائماً ليس لصالح الإنسان بل هو تدمير له أو تعذيب..

وسنضرب عشرة أمثلة من عقوبات الفطرة، على عشرة أمثلة من الانحراف عن أمر الله ليتضح هذا المؤيد القوى من مؤيدات الإسلام.

١ - الزنــا

إن العقوبات الفطرية التى رتبها الله على الاتصال غير الشرعى بين الرجل والمرأة كثيرة تجعل المتعة أقل بكثير جداً من الألم.

فأول العقوبات: إذا حملت المرأة من سفاح فإنها ستمرض وتتألم وتتعطل عن العمل إن كانت عاملة، دون أن يتحمل معها أحد عبء المشاركة بالإنفاق عليها، أو على ولدها، والمرأة عادة لا ترغب فى الأولاد عن هذا الطريق، فهى إما أن تجهض نفسها وذلك ألم أكثر مما تمتعت فيه، وإما ستتحمل مسئولية الحمل والولد وحدها، وهذا ألم آخر يفوق المتعة.

وثانى العقوبات: ما يترتب على عملية الزنا من أمراض جنسية لا تكون إلا عن الزنا كالزهرى والقرحة الأكالة، وجرب التناسل، وسنط التناسل، وهربس التناسل، ومرض السيلان.

وثالث العقوبات: تأنيب الضمير لخيانة الرجل زوجته بزناه بغيرها، وخيانة المرأة زوجها بزناها بغيره والخوف الذى يحيط بالموضوع من خشية كل من الزانية والزانى افتضاح أمرهما فى كل حال، سواء أكانا متزوجين أو غير متزوجين.

ورابع العقوبات: تعطيل الحياة الزوجية، إذ الحياة الزوجية تقوم على أساس صلة المودة التى يغذيها شعور كل من الزوجين بأنه للآخر، فإذا ما أفرغ الزوج طاقته الجنسية عند غير زوجته، وأفرغت المرأة طاقتها الجنسية عند غير زوجها، فترت العلاقة بين الزوجين، ولم يحس أحدهما بالسكن نحو الآخر، وكل منهما صار يرى زوجه لغيره، وفى ذلك من الألم الكثير، إذ ينشأ عند ذلك الجفاء والخصام وعدم الطاعة والرعاية، وبالتالى الطلاق فضياع الأولاد، فزواج آخر قد يكون له نفس المصير.

وخامس العقوبات: أن عملية الجماع ينشأ عنها مودة خاصة، وينتج عن هذا ألم نفسى عند الزانى لشعوره أن هذا الذى تمت معه عملية الجماع سيكون لغيره فى مثل وضعه. وهذا قريب من السابق ولكن ذلك خصصناه لآثار هذا على الحياة الزوجية.

وسادس العقوبات: أن الذى تعود على الزنا يبقى فى شره دائم للنساء ويعيش نتيجة لهذا فى قلق دائم، وضياع واضطراب نتيجة البحث، ومحاولة الاتصال، وفشل وسائل الإغراء، وعدم استطاعته الوصل، وهو بالتالى ليس لولد، ولا لبيت، ولا قرابة له، ويكفيه نتيجة لذلك أن استغنى بالزنا عن الزواج ألا يجد من يرعاه فى مرض أو فى كبر أو من يواسيه أو يحترمه أو يحس معه بأواصر الحنان والرحمة والألفة.

إن الزنا فى الحقيقة عملية تحطيم لأنفس ولأسر ولاجتماع ولذلك قال الله فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] أنه طريق سيىء وعقوبة سلوك الطريق السيىء معجلة فيه.

والمسألة بعد ذلك في الإسلام قد رتب عليها عقوبة جسدية تصل إلى الإعدام فى حالة، وعذاب الله بعد ذلك آت لمن لم يتب، ونحن هنا فقط بسبيل شرح عقوبة سنن الحياة عن الانحراف عن أمر الله ودينه وشريعته، ومهمتنا أن نشير إشارات ولا نطمع فى الإحاطة.

٢ - شرب الخمر

إن الخمر فى دين الله محرمة، وككل محرم فإن إتيانه عقوبته فيه، وهذه بعض عقوبات الانحراف عن أمر الله التى تنتج عن مجرد تعاطى هذا المحرم:

١ - إن شارب الخمر أول ما يصاب بإدراكه وعقله، ويكفى أن نعلم أن شرب كأس واحد من الويسكى يؤدى إلى أن تكثر أخطاء ضارب الآلة الكاتبة مثلاً، ويلاحظ الاضطراب عن الوضع المعتاد فى كل تصرف من تصرفات شاربه، وأى عقوبة أكبر من عقوبة تجعل الإنسان ينحدر إلى وضع المجانين.

٢ – إن شارب الخمر يفقد إرادته وقوة ضبطه لنفسه فيكثر هيمانه، وتكثر سقطات لسانه، وكلما أوغل في شرب الخمر أكثر كلما زادت عنده هذه الظاهرة أكثر، وأبشع بإنسان ينهار نفسياً كل يوم.

٣ – إن ١٣ فى المائة من حوادث المرور سببها الخمر، وكثيراً من الجرائم والفضائع والخيانات سببها الخمر كذلك، وهذه عقوبة فطرية لا تصيب صاحبها فقط، بل تصيب المجتمع الذى يسمح بشرب الخمر.

٤ – والخمر يؤثر على بنية الإنسان تأثيرًا كبيرًا، لدرجة أن هذا التأثير ينتقل إلى الذرية، وقد لوحظ أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحى الجسم، ضعفاء البنية، ناقصى العقول، ويكون لديهم ميل إلى الإجرام، ودافع إلى الشر.

٥ – وكثير من الأمراض سببها الخمر، فانفجار الشرايين فى الدماغ، وارتفاع الضغط، وعسر الهضم، واحتقانات المعدة، وأمراض الكبد وضعف المقاومة.. وكثير من الأمراض، للخمر دخل فى وجودها مع من يشربها.

٦ – ومن عقوبات جريمة شرب الخمر الفطرية، إضاعة الوقت، وقتل النشاط، وإثارة البغضاء، وخراب البيوت، وموت الضمير، وفقدان الحساسية، وأشياء أخرى كثيرة.

إن عقوبة شرب الخمر فيه، ولقد رتب الشارع عقوبة تشريعية رادعة على ذلك، ليس هنا محل بحثها.

٣ – القمار والميسر

وكل انحراف عن أمر الله عقوبته فيه، فإن القمار والميسر هكذا، فالعقوبات الفطرية التى تترتب على هذه المعصية كثيرة، وهى غير ما يستحقه المقامر من تعزير فى التشريع، وغير ما يستحقه من عقوبة يوم القيامة على ما اقترفت يداه. ونلخص أهم العقوبات الفطرية فى القمار بما يلى:

١ – تحطيم أعصاب المقامر أثناء المقامرة، إذ تتوجه جميع قواه العقلية وتستوفز أعصابه لمعرفة النتيجة خسارة أو ربحا بشكل لا مثيل له، مما يؤدى إلى إرهاق الأعصاب، إذ أن المقامرة تجر بعضها بعضاً، فمن بدأ مرة تابع مرات، وهو فى هذه الحالة من التوتر العصبى، فالاستمرار بهذا تحطيم لشخصية الإنسان بشكل كامل.

٢ – ومن أهم العقوبات أن المقامر يبقى يومه كله قبل ميعاد بدء مقامرته، وهو يفكر فيها، فى ربحها وخسارتها، ثم بعد أن ينتهى من مغامرته فهو أحد اثنين إما رابح تأخذه النشوة فيبقى يعيش فيها، وإما خاسر مكمود يتذكر خسارته، معنى هذا أن المقامر لا يعيش لشىء إلا للمقامرة، قد استغرقه القمار عن كل واجب.

٣ – إن القمار ربح أو خسارة غير معقولين يتحكم بهما شيء غير معقول وينتج عن هذا أن المتقامرين دائماً فى حالة حقد وحسد وبغضاء، وتشاحن ظاهر وخفى فيما بينهم، فجو المتقامرين جو شقاء ونكد، لا يمكن أن تجد فيه سعادة مستمرة.

٤ – عملية الرابح الوحيد فى المقامرة، هو من يدير عملية القمار من ناد أو مقهى، أو صاحب بيت، وأما الأطراف الأخرى فهى فى خسارة وربح.

ويترتب على الخسارة فواجع وفظائع، فالغنى اليوم فقير غداً، وصاحب العيال قد يفرط بقوت أولاده على مائدة القمار، وقد يبيع داره وقد وقد مما هو من تصرفات المجانين، إذ يتحكم بعملية نقل الملكية ضربة نرد أو ورقة لعب، وكفى بهذا عقوبة للخاسر.

أما الرابح اليوم فهو الخاسر غداً، إذ يوم لك ويوم عليك فى القمار، ولن يربح فى النهاية الا الخبثاء الذين يديرون هذه القضايا، وكل ما فى الأمر أن الرابح اليوم خسر مودة الآخرين.

٥ – إن الذى ربح فى القمار لا يبالى كيف أنفق المال، لأنه لم يتعب فى تحصيله، الذى يخسر قد تضطره خسارته للخيانة والسرقة، وفى كلا الحالين تجد الانحراف الذى يؤدى إلى الملاحقات القانونية، والعقوبات أو الضرر الاجتماعى، على كل حال، إذ الرابح عن هذا الطريق لن يفكر فى العمل، وذلك تعويد له على الكسل والتسكع، فإذا ما خسر فى يوم آخر فماذا يفعل بعد أن اعتاد على عدم مزاولة العمل، إنه إن عمل فبألم، وإن لم يعمل عانى شقاءً.

ولكى نعرف بالضبط كيف أن القمار عقوبته فيه، ادرس أحوال المقامرين تجد الديون والشقاء والألم ونسيان الواجبات، والتفريط بحقوق الأهل والأصحاب والناس. والشرود الدائم، والخطأ الكثير، إنك لا تجد إنساناً سوياً أبداً.

٤ – أكل لحم الخنزير

أول عقوبات الانحراف عن أمر الله فى أكل لحم الخنزير أن آكل لحم الخنزير معرض للإصابة بدودة لحم الخنزير يقول (بيتى وديكسون):

(إن الإصابة بها تكاد تكون عامة فى جهات خاصة من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا ولكنها تكاد تكون نادرة فى البلاد الشرقية لتحريم دين أهلها أكل لحم الخنزير).

وثانى هذه العقوبات أن آكل لحم الخنزير معرض لمرض التريخينا الذى من خواصه:

أولاً: لا يمكن للطبيب الأخصائى أن يذكر أن خنزيراً ما غير مصاب بهذه

الديدان إلا إذا فحص كل جزء من عضلاته تحت المجهر وهذا غير ممكن لأنه إذا فعل ذلك نفد لحم الحيوان .

ثانياً : الأنثى الواحدة من هذه الديدان تضع نحو ١٥٠٠ جنين في الغشاء المخاطي المبطن لأمعاء المصاب، فتوزع الملايين المولودة من الإناث جميعاً بطريق الدورة الدموية إلى جميع أجزاء الجسم، فتتجمع الأجنة في العضلات الإرادية حيث تسبب آلاماً شديدة، والتهابات عضلية مؤلمة تدعو إلى انتفاخ النسيج العضلي وصلابته، وتكون نتيجة ذلك الأورام التي تمتد بطول العضلات .

ثالثاً : لا يوجد علاج لهذا المرض، ولأسباب فنية لا يجدى معه دواء، فحتى الآن لم يعرف له دواء مناسب .

وثالث هذه العقوبات أن لحم الخنزير ينقل للإنسان بعض الجراثيم العفنة، والباراتيفود التي تسبب للإنسان تسمماً حاداً، مصحوباً بالتهابات شديدة في الجهاز الهضمي، وقد تسبب الوفاة في بضع ساعات .

ورابع هذه العقوبات ما يحدثه أكل لحم الخنزير من تغيير في نفسية الإنسان يخرجها عن وضعها السليم وذلك أن للطعام والشراب أثراً في نفس الإنسان بشكل واضح .

فمثلاً : بعض الأشربة إذا شربها الإنسان أحس بفرح وخفة ونشاط، وهناك طعام يحس معه الإنسان بفتور وكسل، ويلاحظ أن نفسية الذين لا يأكلون إلا النبات تختلف عن نفسية الذين يأكلون اللحوم، وحتى الذين يديمون أكل لحم الجمل، تجد نفسيتهم تختلف عن نفسية الذين يديمون أكل لحم الضان، وهذا واضح في الحيوانات بشكل بارز، فالحيوانات النباتية ألطف وأقل شراسة وأكثر انقياداً من الحيوانات اللاحمة، فلنوعية الطعام أثر في تكوين أخلاق النفس البشرية، والخنزير بشكل عام له أخلاق هابطة دنيئة، وعنده بلادة فظيعة، وتحسس بطيء بكل ما يجرى حوله، فأكل لحمه يؤثر تأثيراً سيئاً على نفسية آكليه، ونظرة واحدة إلى المناطق التي يؤكل فيها لحم الخنزير، ومقارنتها بغيرها من المناطق الأخرى تشعرك بوضوح أن هناك اختلافاً جوهرياً في الأخلاق والنفسية، فمثلاً خلق الشرف، والمحافظة على العرض، والغضب لانتهاك حرمات الزوجة والأرحام، وتبلد كثير من جوانب الشخصية البشرية، كل هذا تجده بشكل واضح في المناطق التي يؤكل فيها لحم الخنزير، وتجد عكسه في المناطق الأخرى، إلا إذا وجدت عوامل أخرى أدت إلى تشابه في النفسيات .

وهذا عقاب فظيع لا تحس به إلا نفس شفافة صافية، أن تمرض نفس الإنسان لدرجة التبلد، فلا تقف المواقف المناسبة السليمة من الحوادث، إذ ينشأ عن هذا ضعف

رابطة الزوجية، وضعف رابطة الأبوة والبنوة، وضعف رابطة الأسرة بشكل عام، وموت الاحساسات الإنسانية الطيبة، من ثقة إلى حنان إلى عطف، وهذا كله عذاب، وهذا كله ملاحظ فى المناطقة التى تأكل لحم الخنزير.

٥ – عدم قرار المرأة فى بيتها

لقد أمر الله نساء النبى أمرًا هو لكل امرأة فقال:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وإذن فقد جعل الله المهنة الأساسية للمرأة داخل بيتها، كأم وربة بيت ترعى زوجها وأولادها، وجعل لها فى مقابل ذلك أن نفقتها على غيرها دائمًا: على زوجها بعد الزواج، وعلى أبيها قبله لأنها فى مرحلة تدريب على رعاية البيت، والزوج والأولاد، وفى حالة فقد هذا وهذا فرض نفقتها على أقرب الناس إليها، ثم الأقرب إلا إذا كانت غنية.

وما له علاقة فى هذه القضايا قد مر تفصيلاً فى بداية المنهاج الاجتماعى والأخلاقى. ولكن نفرض أن النساء والرجال قد اتفقوا على صيغة أخرى من صيغ التعايش، تصبح فيها المرأة كالرجل فى الوظيفة والعمل، والمطالبة بالنفقة والكسب، كما حدث هذا عمليًا بشكل كامل فى العالم الغربى الآن، حيث أصبح الرجل والمرأة كلاهما خارج البيت فى العمل ويتقاسمان أمر البيت كذلك.

فما هى العقوبات الفطرية التى ترتبت، ويمكن أن تترتب على مثل هذا كله؟

إن أول عقوبة فطرية تترتب على مثل هذا: أن تضطرب العلاقة بين الرجل وزوجته، فلا هى تحس بطمأنينة ولا هو يحس بسكن، ولا الأولاد يحسون برعاية كاملة ولا المرأة تستطيع ذلك.

وثانى العقوبات: أن المرأة تشعر بأنها تستطيع الاستغناء عن زوجها نتيجة لذلك، والرجل لا يتغير عليه كثير من الأمور إذا فقد زوجته، وينتج عن هذا أن عقد الزواج دائماً معرض للخطر، ومن العجيب أن فى بلاد الإسلام حيث يباح الطلاق تكاد تكون نسبة الطلاق خاصة فى البيئات الملتزمة بالإسلام صفرًا، بينما نسبة الطلاق فى بعض البلدان الغربية تصل إلى السبع من حالات الزواج.

وثالث العقوبات: أن المرأة بهذا الخروج أسقطت حق نفقتها على الآخرين، مما يجعلها فى حالة عذاب وشقاء دائم متى بلغت سن الرشد، إذ تطالب بأن تنفق على نفسها، وعليها أن تبحث عن عمل، وأن تعمل كالرجل.

ورابع العقوبات: أن المرأة نتيجة لهذا تبدأ تفقد خصائص أنوثتها، بحيث لا تعود

صالحة لوظيفتها الأساسية : حمل الجنين وحضانته لاستمرار النوع البشرى وفى ذلك ألم نفسى كبير.

وسنرى هذا أثناء الكلام الذى سننقله فى نهاية هذا البحث عن (سيد قطب) .

وخامس العقوبات : أن تتفكك الروابط الاجتماعية، فلا أسرة ولا أبوة ولا بنوة ولا مشاعر عاطفية، فكم من أب لا يعرف عن أبنائه شيئًا، وكم من أم مهددة، ولعل عيد الأم فى الغرب إنما هو رمز فظيع على انقطاع أواصر الأسرة، حتى احتاجوا إلى يوم يتذكر فيه الإنسان أن له أماً وأباً.

وسادس العقوبات : أنه بانعدام رابطة الأسرة أو ضعفها أصبح الطفل لا يرث عن الآباء خصائص الإنسانية وعواطفها، ولذلك تجد هذا الضياع الذى يعانيه المراهق فى الغرب، والذى مظهره جيل الخنافس والمشردون والفوضويون وغير المبالين.

وهذه أمثلة، والعقوبات الفطرية التى تترتب على هذا أكثر، حتى أنك لتستطيع أن تقول أن الاجتماع البشرى كله معرض لخطر الاضمحلال النفسى والجسدى نتيجة للعقوبات التى تترتب على هذا الانحراف.

وطبعاً كلامنا عندما تصبح القاعدة هى عدم جلوس المرأة فى بيتها للقيام برعاية الزواج والأولاد، وعدم التزامها بآداب الإسلام خارجه. أما إذا كان الأصل فى مجتمع قرارها، وتحدث حالات نادرة ضمن قيود محدودة كما رأينا. فهذا لا يؤثر، وليس فيه ضرر مادام الالتزام بالإسلام موجوداً.

٦ - الرشــوة

لقد حرم الإسلام الرشوة : أخذها وإعطاءها والوساطة لها : (لعن رسول الله ﷺ الراشى والمرتشى والرائش بينهما) وقال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

وهذه الجريمة تترتب عليها عقوبات فطرية كثيرة تصيب الدولة التى تنتشر بها، والمجتمع الذى يعيش فيها، والفرد الذى تتم العملية له أو عليه.

فمن أول العقوبات الفطرية أن المجتمع الذى يحس بأنه لا ينال الحق فيه إلا بالباطل والرشوة، تضيع به الموازين، وتنهار الثقة، ويزداد فيه الشك ويتفسخ، ويصبح ناقما على دولته غير واثق بها، مما يسهل الاطاحة بها وإنهيارها.

وثانى العقوبات : أن الرشوة إذا انتشرت أصبح كل إنسان معرضاً لدفعها : الآخذ فى مجال مضطر للدفع فى مجال آخر، وفى ذلك ألم يحسه كل من عاناه.

وثالث العقوبات : أن المرتشى إنسان يعيش دائمًا فى حالة خوف من أن يفتضح أمره وكذلك الراشى .

ورابع العقوبات : أن كلا الرجلين إنسان فاقد القيمة، هذا شعوره بنفسه، وشعور الآخرين به . أنه إنسان منحط غير جدير بالاحترام، ويربط الناس تصرفاته المالية كلها بهذا، فهو إذا أقام بناء قالوا مرتش، وإذا ظهر له مال قالوا كذلك، وهو فى هذه الحالة ينحدر وضعه النفسى من سيىء إلى أسوأ، حتى يتبلد ضميره، ويعيش أزمة مقت الآخرين له، ومقته للآخرين، فلا يبالى بما يقال عنه، ويؤثر هذا على سلوك أسرته كلها، فتنحرف ويصبح وجودها ظاهرة غير عادية .

وخامس هذه العقوبات : أن المجتمع الذى يسمح بمثل هذا، مجتمع تضيع فيه الحقوق، ويأكل القوى فيه الضعيف، وتضيع به الحدود . فحق الدولة يصبح للأفراد، وحق الأفراد ينتقل إلى غيرهم بغير طريق مشروع، ومجتمع هذا شأنه يصبح فى حالة سباق إلى الخيانة، فتضيع مثله، ويتحلل ثم يسقط . وهذا بعض ما يترتب على القضية من عقوبات .

٧ - ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد

إن عقوبات الفطرة التى تترتب على ترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر والجهاد بالنسبة للمسلمين كثيرة :

منها ذلة الأمة الإسلامية أمام أعدائها فى الخارج، وذلة المؤمنين أمام المنافقين فى الداخل، وهذا واقع نراه الآن وتعيشه الأمة الإسلامية فى واقعها الحالى، وقد تحدث عن هذه العقوبة رسول الله ﷺ فى أكثر من حديث يقول عليه السلام : (إذا تبايعتم بالعينة وتبعتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم جهادكم سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى تعودوا إلى دينكم) . وروى عنه عليه السلام : (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم) .

ومنها أن يعم الظلام والضلال، وتستشرى الفتنة حتى لا يعرف أحد طريقه . وفى الأثر :

(كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم؟ قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟ قال : (نعم، والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون) قالوا : وما أشد منه يا رسول الله؟ قال : (كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر)؟ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال : (نعم، والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون) قالوا : وما أشد منه؟ قال : (كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرًا والمنكر معروفًا)؟ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال : (نعم، والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون) قالوا :

وما أشد منه؟ قال: (كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف)؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: (نعم، والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون، يقول الله تعالى: بى حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران.

وهذا كله واقعنا الحالى بآثاره كلها.

ومنها أن تفترق قلوب الأمة وتصطدم نفوسها، ولا يكون بينها تلاقى على شىء أبداً، إذ بعد أن فقدت الحق الذى يجمع، فإن الباطل طرقه كثيرة مفرقة. وفى الحديث:

(لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داوود - الآية - ثم جلس وكان متكئا فقال: لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً).

وعاقبة هذا كله الهلاك والموت، إذ عندما تفقد أمة الإسلام حياتها التى هى باستجابتها لأمر الله ماذا يبقى لها ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ [الانعام: ١٢٢]، ﴿ **اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢٤] فالحياة فى الإسلام، وترك ما يؤدى إلى بقاء الإسلام وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد معناه الهلاك. وفى الحديث:

(مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا) رواه البخارى.

والحقيقة أن مصدر الشر كله يخرج من هذا الباب، إذ ما من انحراف إلا وراءه ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد، وكل انحراف يترتب عليه كما رأينا عقوبات فطرية كثيرة.

٨ - الموسيقى والغناء الفاسد

١ - إن سماع الموسيقى الدائم يجعل النفس البشرية فى حالة ارتخاء دائم، فتقوى بها نوازع الهوى والاخلاد إلى الراحة، وكراهية التكاليف والمشقات، وهذا خطر من الأصل على وجود الأمة وشعورها بواجبها، واستعدادها للتضحية له، وهذه أول عقوبة فطرية تترتب على هذا الانحراف، وادرس تاريخ الأمم فإنك لا تجد أمة أغرقت واستغرقت فى الموسيقى، وكان عندها روح نضال، بل تجد عندها دائما روح الاستسلام.

٢ – والموسيقى ذروة اللهو، واللهو ذروة الحياة الدنيا، فاستغراق الإنسان بالموسيقى والأنغام وإقباله الدائم عليها، يجعله فى وضع عملى من الناحية النفسية منصرفًا عن الآخرة، غافلاً عنها ناسيًا لها، وتجد مشاعره كلها منصبة على متعة الدنيا، مما يجعله بشكل عملى منصرفًا عن القيام بالتكاليف، وادرس حياة إنسان: رجل أو أنثى مولع بالموسيقى تجد نفس إنسان متثاقلة عن التكاليف، إن قام ببعضها أهمل الآخر. فالموسيقى فى الحقيقة تخدير لمشاعر الإنسان العليا، وإيقاظ لعين الدنيا فى قلب الإنسان.

٣ – إن وقت الإنسان فى العادة موزع بين العمل والإنتاج، والنوم والطعام وغيره، وما يتبقى بعد ذلك من الوقت ينبغى أن يصرفه الإنسان على إصلاح ذات نفسه، باستكماله فضائلها وكمالاتها، ومجتمع يقضى وقت فراغه فى مثل هذا يرجى له خير، أما إذا شغلت أوقات الفراغ هذه بوسائل اللهو والتسلية والباطل، أصبح الإنسان يعيش حياة الحيوان التى ليس للمخلوق فيها هدف سوى طعامه وشرابه ومتعته، والبحث عما يؤدى إلى هذا.

٤ – فإذا ما أضيف إلى هذا كله الغناء الذى ينبع عن تصور فاسد للإنسان، وعن عواطف خسيسة، وعن فكر ردىء، وعن مشاعر منحرفة، فإن هذا كله قتل للأمة وروحها، ومسخ لحقيقتها.

إن الغناء يؤثر فى تربية الأمة أكثر من تأثير القانون، وكلمة كونفوشيوس فى هذا الموضوع حكيمة: (قبل أن تخبرنى من يضع للأمة قانونها أخبرنى من يضع لها أغانيها) فالغناء أكثر أثرًا فى تربية الإنسان من أى شىء آخر، لأنه ألصق بالنفس والعواطف، فإذا كان الغناء الذى تسمعه الأمة صباح مساء، هو من النوع الذى ذكرناه، وصاحب هذا كله الموسيقى، فاقرأ على معنى الواجب عند أفراد هذه الأمة السلام، وعندما تفقد أمة حب القيام بالواجب، فهى إلى اندحار وانتحار.

إن محور وجود الإنسان فى هذه الحالة، يدور حول عبودية الذات، والحرص على المصلحة الشخصية، وتناسى كل شىء إلا (أنا).

إن فى الموسيقى والغناء الفاسد ضياع توازن الإنسان لصالح الملكات الدنيا فيه، والرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا لرفع ملكات الإنسان.

وأنظر كيف يتفاعل الناس، وكيف يتحركون، وكيف يصيحون، وكيف يستغرقون. وفيم يتألمون، والأمم تنصرف تصوراتهم وأذهانهم إذا سمعوا فلانة أو فلانا، تعرف ببساطة أن هذا كله يقف فى الطرف المعاكس لما دعا إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٥ – وما ذكرناه كله فى الحقيقة ليس لصالح الإنسان فى الأمة، وليس لصالح الأمة، بل هو لغير صالحها، وبتحطيم حيويتها وعواطفها الصحيحة، وقواها المعنوية كلها، وفى ذلك عقاب أى عقاب، وعذاب أى عذاب يعانيه الإنسان أمام كل منظر من مناظر الاستهتار بالواجب، وما أكثرها عندما تميع أخلاق الأمة على موائد اللهو والطرب، وأمام سماعه الراديو وشاشة التليفزيون.

٩ – المحاباة فى تطبيق القانون

يقول عليه الصلاة والسلام: (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) رواه الخمسة.

فالأصل فى شريعة الله أن الجميع أمامها سواء، فإذا ما حدث أن الأمة قامت حكومتها على تنفيذ القانون على بعض الناس، ومحاباة الآخرين، فإن عقوبات الفطرة تلحقها مباشرة.

ومن هذه العقوبات: أن تفقد هذه الحكومة هيبتها، وثقة الناس بها، وبالتالى سيطرتها.

ومن هذه العقوبات: أن تزداد الجرائم وتعم، لأن الناس إما شريف ناج من العقابا لشرفه فلا يبالى مهما ارتكب من جرائم، وإما ضعيف يقلد الأشراف فى جرائمهم ولا يعدم أن يجد شريفًا يشفع له.

ومن هذه العقوبات: أن يألف الناس بعد ذلك المنكر، وأن يعيشوه، ويصبح الخير غريبا، وعندئذ يبدأ الخلل يعم كل شىء.

ومن هذه العقوبات: أن يصاب الناس نتيجة لعدم طول القانون كل الناس بالخوف، إذ لا ينال كل معتد عقابه، فيخاف الإنسان على ماله وعرضه ونفسه وفى ذلك عذاب.

ومن هذه العقوبات: أن المظلوم ييأس أن ينال حقه فيتذمر، ويعم التذمر كلما ازداد الأنحراف سعة، فيحدث الشقاق بين أبناء الأمة، والنزاع والثورات على الدولة، وتضطرب الأمور ويصبح الناس ولديهم قابلية لكل داعية إلى خروج على الدولة أو الإطاحة بها.

وهذا بعض ما فى هذا الأنحراف من عقوبة.

١٠ – التفريط فى العلم

إن أى جزء من أجزاء العلوم المفروضة فرض عين، أو فرض كفاية نفرط به، يترتب

على ذلك عقوبة فطرية، وأى علم مكروه أو محرم نتعلمه أو نتساهل فى تعليمه، ويترتب على ذلك عقوبات فطرية.

فمثلا عندما نفرط فى تعلم الأخلاق الصالحة، وتعليمها، ينشأ الإنسان ولم يحصل الحد الأدنى من التهذيب، فتكون النتائج أنه يعذب غيره ويعذب نفسه، فترى الإنسان يسخر من غيره، ويؤذيه ويشتمه ويعرض عنه ولا يحترمه. وكما يعامل الناس يعامله الناس، وفى ذلك عذاب لكل فرد فى ذلك المجتمع المفرط.

وعندما نفرط فى تعلم فرض من فروض الكفاية نصبح محتاجين لغيرنا فيه، وغيرنا قد يضغط علينا ويشترط شروطًا لغير صالحنا، أو يغشنا، فيضرنا من حيث أردنا أن ننتفع منه، وفى ذلك كله عذاب.

وعندما نسمع للكتب المضرة أن تنتشر بين أيدى الناس فأول ما نصاب نتيجة لذلك أن وقت الناس يضيع فى غير الطريق الصحيح، ثم يظهر ثمرات هذه الكتب فى آراء الناس وأفكارهم، فتبعدهم عن صفاء الفطرة الإسلامية، فيختلف الناس، وتضطرب آراؤهم، ويكون بعد ذلك التخلخل والعذاب ﴿ **وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وهكذا فى كل جزء من أجزاء العلم فرطنا به، وجودًا حيث لا يجوز وجوده، وعدما حيث يجب أن يكون.

* * *

هذه أمثلة عشرة رأينا فى كل منها كيف أن الإنحراف عن أمر الله عقوبته الفطرية موجودة فيه، لا نستثنى من ذلك سنة أو واجبًا فريضة أو مكروها أو حرامًا.

إن ترك سنة السواك يؤدى إلى فساد الأسنان، وإيذاء الآخرين بالمنظر والرائحة.

وترك ستر العورة يؤدى إلى جفاف بعض الأخلاق الأساسية فى التربية الإسلامية وتبخرها كالحياء، وفى ذلك مفسدة تظهر آثارها فى أشياء كثيرة.

وترك للصلاة يترتب عليه موت العقيدة بموت القلب الذى يحملها، وموت القلب تترتب عليه الغفلة عن الله ورسوله وشريعته. والانحراف عن العبودية لله سقوط فى عبودية غيره من هوى وصنم وإنسان وطبقة، وعبودية الإنسان للإنسان أو للشيطان شيء فظيع، إذا لا تبقى للإنسان قيمة، ولا يبقى له مثل، بل يفقد كل يوم شيئًا من أصالة فطرته لتستقر حيوانيته بعد ذلك.

إن الناس لو عقلوا ما يصيبهم نتيجة الانحراف عن الإسلام أو عن أى جزء فيه لما

اطمأنت قلوبهم وعقولهم إلا على طاعة أمر الله باتباع شريعته، ولكنهم لا يزالون ينحرفون ويعذبون ويظلمون أنفسهم ولا يعقلون.

* * *

وقد سمى الأستاذ سيد قطب هذا المعنى وهو ما يترتب على الانحراف عن دين الله والإيمان به (بعقوبة الفطرة) وكتب فصلا ممتعا حول هذا الموضوع فى كتابه (الإسلام ومشكلات الحضارة) ننقله كله لما فيه من حجة بالغة ونذير مبين.

يقول:

«لم يكن بد وقد شرد الإنسان عن ربه ومنهجه وهداه.. وعبد الإنسان نفسه واتخذ إلهه هواه. وجهل الإنسان نفسه كذلك، وراح يخبط فى التيه بلا دليل. وأقام منهج حياته على قواعد من هذا الجهل، ومن ذلك الهوى. واعتدى على فطرته التى فطره الله عليها، فى حموة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه.

لم يكن بد وقد رفض الإنسان تكريم ربه له، فاعتبر نفسه حيواناً -- وقد أراده الله إنسانا – وجعل نفسه آلة – وقد أراده الله مهندسا للآلة -- بل جعل الآلة الها يحكم فيه بما يريد. وجعل المادة إلهاً، يحكم فيه بما يريد. وجعل الاقتصاد الها يحكم فيه بما يريد – وقد أراد له ربه أن يكون سيد المادة وسيد الاقتصاد. ولكنه رفض هذا التكريم كله لينجو فقط من الكنيسة، ويشرد من اله الكنيسة!

ولم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيوانا لطيفا – كما أن الرجل حيوان خشن – غاية الالتقاء بينهما اللذة، وغاية الاتصال بينهما المتاع. ونسى أن الله يرفع هذه العلاقة ويطهرها ويزكيها، وينوط بها امتداد الحياة من جهة، وترقية الحياة من جهة أخرى، ويربط بها عجلة التمدن الإنسانى، ويجعل من الأسرة محضن المستقبل، ويجعل من المرأة حارسة الإنتاج النفيس نتاج المادة الإنسانية.. ويصونها من التبذل كى لا تكون مجرد أداة لذة. ويصونها من الاشتغال بانتاج المواد فى المصنع وهى فى الأسرة تنتج وتحرس مادة (الإنسان).

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه (الإنسانية) ليحصر طاقته فى الإنتاج المادى، وأقام حياته كلها على أساس مادى، وتصور مادى، وكبت الجوانب الحية المرفرفة اللطيفة فى حسه، والتى وهبها الله له لانه (الإنسان) الخليفة الفذة فى هذا الكون، والتى تجعل المتناقضات كلها فى تناسق بديع.

لم يكن بد وقد أقام الإنسان نظامه على الربا، ليكد القطيع البشرى كله فى خدمة بضعة آلاف من مؤسسى البيوت المالية والبنوك والمرابين، تعود إليهم حصيلة كد

البشرية فى أقاصى الأرض وهم قابعون وراء المكاتب الفخمة، والنظريات الاقتصادية، وجميع أجهزة التوجيه والإعلام.

وفى النهاية.. لم يكن بد وقد اتخذ الإنسان له آلهة من دون الله فاتخذ من المال إلهاً، ومن الهوى إلهاً، ومن المادة إلهاً، ومن الإنتاج إلهاً، ومن الأرض إلهاً، ومن الجنس إلهاً، ومن المشرعين له آلهة يغتصبون اختصاص الله فى التشريع لعباده، فيغتصبون بذلك حق الألوهية على عباد الله.. كل هذا الآلهة اتخذها وعبدها، ليهرب من الله ويستنكف عن عبادته!

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كله بنفسه أن تحل به عقوبة الفطرة.

وأن يؤدى ضريبة المخالفة عن ندائها العميق.. وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة.

وقد كان..

كان.. وأداها من نفسه وأعصابه. ومن بدنه وعافيته. ومن سعادته وطمأنينته ومن مواهبه وخصائصه. ومن دنياه وآخرته.

أداها – وفى الأمم التى بلغت ذروة الحضارة المادية بالذات – تناقصا فى النسل يهدد بالانقراض. وتناقصاً فى الخصائص الإنسانية يوحى بالنكسة إلى البربرية. وتناقصا فى الذكاء والمستوى العقلى يهدد بانهيار العلم الذى قامت عليه الحضارة، وبانهيار الحضارة ذاتها فى النهاية.

وظهرت آثار الكبت للطاقات الأخرى التى لا تحتاج إليها الصناعة بطرائقها الحاضرة، وآثار القلق على المستقبل فى المجتمع المادى المتناحر، وآثار الخواء الروحى الذى تفرضه الفلسفات والأوضاع فى المدنية الكافرة.. ظهرت آثارها فى صورة الأمراض العصبية والعقلية والنفسية، والعته والجنون والشذوذ والانحراف والجريمة.

وظهرت آثار التوجيه المتواصل إلى حيوانية الإنسان وماديته وسلبيته، وإطلاق شهواته وغرائزه من كل ضابط.. ظهرت فى صورة الانحلال واللامبالاة والسلبية، وقبول الديكتاتوريات وحياة القطيع التى لا هدف لها إلا الفساد واللقاح والطعام والشراب.

وكتب على البشرية أن تؤدى الضريبة فادحة صارمة ثقيلة: حروبا رهيبة ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين. وأزمات تلو أزمات.. أزمات إذا قل الإنتاج، وأزمات إذا زاد الإنتاج، أزمات إذا مال الميزان التجارى إلى العجز، وأزمات إذا مال الميزان التجارى إلى الزيادة. أزمات إذا نقصت المحصولات، وأزمات إذا فاضت المحصولات. أزمات إذا قل النسل، وأزمات إذا زاد النسل. وتخبط من هنا وتخبط من هناك. وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار. وضغط

على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم، فيخرون أمواتاً بالسكتة وتفجر المخ، أو يخرون اشلاء أو مجانين، كما لو كانت قد سلطت عليهم قوى المردة الاسطورية من حيث لا يحتسبون.. وما سلطت عليهم سوى أنفسهم. وما كان إلا نذير الله الذى لم تتفتح له القلوب والآذان:

﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨].

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ * ﴾ [سورة العصر].

* * *

والآن نأخذ فى عرض أقوال الشهود عن بروز آثار الحضارة المادية وتضخيمها فى الأمم التى وصلت إلى قمة الحضارة.. فنستوفى بهذا عناصر المأساة الأربعة - كما أشرنا إليها فى مقدمة هذا البحث.

وقد أخذنا شهودنا من درجات متفاوتة. ومن بيئات مختلفة: منهم العالم المحقق المؤمن بالعلم، المعتمد عليه فى مواجهة المأساة.. ولا سواه.. ومنهم الفيلسوف الذى لا يؤمن بالدين. ومع ذلك يرى على ضوء العقل الخطر الذى تتردى فيه البشرية.. ومنهم الباحث المؤمن بالدين وبالعقل وبالعلم وبفطرة الإنسان العارف فى الوقت نفسه بمكان كل من هؤلاء فى مجال المعرفة ومجال العلاج.. ومنهم الطبيبة

التى تقدر جدية الموضوع فتعالجه بالجد الذى يستحقه.. ومنهم الصحفى الذى لا يعنيه من المأساة إلا العرض الصحفى والتشويق والاغراء.

وقد اكتفينا بهذه الشهادات من عشرات مثلها. لأنه لا سبيل لإثبات كل الشهادات. واستدعاء كل الشهود، فى فصل من كتاب!

* * *

يبدأ الدكتور الكسيس كاريل شهاته بالكلام عن مخالفة البشر لما يسميه: (القوانين الطبيعية) — ونسميه نحن: (قوانين الفطرة التى فطر الله الناس عليها) — والعواقب التى لابد أن يلقاها من يخالف هذه القوانين الصلبة التى لا تلين. ولا تترك مخالفيها بلا عقوبة، ثم يأخذ فى بيان ما حل بالبشرية فعلاً من هذه العقوبة:

(قبل أن أبدأ هذا الكتاب، كنت أدرك تمامًا صعوبة ها العمل بل استحالته تقريبًا. ولكننى شرعت فيه لأننى كنت أعلم أن شخصًا ما لابد سيؤديه.. **لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية فى مجراها الحالى، لأنهم آخذون فى التدهور والانحطاط. لقد فتنهم جمال علوم الجماد. أنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية — وهى قوانين أكثر غموضا وإن كانت تتساوى فى الصلابة مع القوانين الدنيوية — كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم**. ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوى ولأترابهم أبناء آدم، ولذاتهم الداخلية وتلك التى تتصل بأنسجتهم وعقولهم. فإن الإنسان يعلو كل شىء فى الدنيا فإذا انحط وتدهور فإن جمال الحضارة بل حتى عظمة الدنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى. لهذه الأسباب كتبت هذا الكتاب) (ص ١٠، ١١).

(الإنسان نتيجة الوراثة والبيئية وعادات الحياة والتفكير التى يفرضها عليه المجتمع العصرى.. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى جسمه وشعوره، وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقتها التكنولوجيا، وإن مثل هذه البيئة تؤدى إلى انحلاله. وإن العلم والميكانيكا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة، وإنما نحن وحدنا المسئولون. لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع، لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى، الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائماً.. إن مبادىء (الدين العلمى) والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة البيولوجية.

.. فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتياد الأرض المحرمة.. هى إضعاف السائل. ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار. لأن علوم الجماد

قادتنا إلى أرض ليست لنا. فقبلنا هداياها جميعًا بلا تمييز ولا تبصر. ولقد أصبح الفرد ضيقا متخصصًا فاجرًا، غبيًا، غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته).. (ص٣٢٢).

(إن الصفة الغالبة على الفرد فى الحضارة العصرية هى الافراط فى النشاط الذى يوجه كله نحو الجانب العملى من الحياة. كا يتصف الفرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء.. وأيضًا بنوع من الضعف العقلى، الذى يتركه تحت تأثير البيئة التى يتفق وجوده فيها.. ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق).. (ص ٣٦).

(يبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة. ففى كل بلد يوجد تناقص فى المستوى العقلى والأدبى لأولئك المسئولين عن الشئون العامة) (ص ٣٧).

(إننا قلما نشاهد أفرادا يتبعون مثلاً اخلاقيًا أعلى فى تصرفاتهم فى المدنية العصرية). (ص ١٦٠).

(إن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائى بالجمال فى عملهم أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون، لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك. إن الصناعة -- بشكلها الحالى -- حرمت العامل من الابتداع والجمال).. (ص ١٦٢).

(إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفى والجمالى أو الدينى يخلق أشخاصاً فى المرتبة الدنيا ذوى عقول ضعيفة غير سليمة. وبالرغم من أن التعليم العقلى يهيأ الآن لكل فرد، إلا أننا مازلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص فى كل مكان) (ص ١٦٨).

(فأكثر الناس تمدينا يظهرون شكلاً بدائياً فقط من الشعور. أنهم قادرون على العمل السهل الذى يؤمن حياة الفرد فى المجتمع العصرى. انهم ينتجون ويستهلكون ويرضون شهواتهم الفسيولوجية. وهم أيضاً يسرون بمشاهدة المباريات الرياضية والأفلام السينمائية الصبيانية الخشنة. كما يسرون حينما ينتقلون بسرعة من مكان إلى آخر بدون بذل أى جهد، وحينما يتطلعون إلى الأشياء السريعة الحركة. انهم ناعمون عاطفيون شهوانيون، قساة، مجردون من الأحساس الأدبى والدينى والشعور بالجمال). (ص ١٦٩).

(إن عدم التناسق فى دنيا الشعور ظاهرة مميزة لعصرنا).. (ص ١٧٠).

(فى استطاعة التفكير أن يولد أمراضًا عضوية بصفة عامة. ومن ثم فان عدم استقرار الحياة العصرية والانفعال الدائم وانعدام الأمن تخلق حالات من الشعور تجلب الاضطرابات العصبية والعضوية للمعدة والأمعاء. كذا نقص التغذية، وتسرب الجراثيم

المعوية إلى الدورة الدموية. والتهاب الكلى وما يصحبه من أمراض الكلى والمثانة إن هى إلا النتائج البعيدة لعدم التوازن العقلى والأدبى.. ومثل هذه الأمراض تكاد تكون غير معروفة فى الجماعات التى تحيا حياة بسيطة وليست على القدر الذى ذكرناه من الانفعال، كما أن القلق فيها غير دائم.. وبالمثال فإن الأشخاص الذين يحافظون على سلام ذاتهم الباطنية، وسط ضوضاء المدينة الحديثة محصنون ضد الاضطرابات العصبية والعضوية) (ص ١٧٧).

(يجب أن يظل النشاط الفسيولوجى خارج حقل الشعور. إذ أنه لا يلبث أن يصاب بالاضطراب حينما نوليه اهتمامنا. ولذلك فان (التحليل النفسى) حينما يوجه عقل المريض نحو نفسه قد يزيد من حالة عدم التوازن. ومن ثم فانه من الأفضل أن يهرب الإنسان من نفسه ببذل جهد لا يشتت عقله بدلا من الاستغراق فى تحليل نفسه.. إذ أننا حينما نوجه نشاطنا نحو غاية محددة نجعل وظائفنا العقلية والعضوية كاملة التناسق. لأن توحيد الرغبات وتوجيه العقل نحو غاية واحدة ينتج ضرباً من السلام الداخلى. ولكن الإنسان يشتت نفسه بالتفكير مثلما يشتتها بالعمل.. ومع ذلك فإنه يجدر به ألا يقنع بتأمل جمال المحيط، أو الجبال والسحب، وروائع ما أنتجه الفنانون والشعراء، والمبادىء السامية التى تمخضت عنها عقول الفلاسفة، والعمليات الحسابية التى تعبر عن القوانين الطبيعية.. وإنما يجب عليه أيضاً ان يكون الروح التى تكافح لبلوغ مثل أدبى عال، وتبحث عن النور فى ظلمات هذا العالم وتسير قدماً فى طريق الدين، وتنبذ نفسها لكى تفهم الأساس غير المنظور لهذا العالم. إن توحيد نشاط الشعور يؤدى إلى تناسق أعظم بين الوظائف العضوية والعقلية.

ولهذا ندر أن توجد الأمراض العصبية وأمراض التغذية، والإجرام، والجنون، بين الجماعات التى نما فيها الشعور الأدبى والعقلى فى وقت واحد، كما يكون الفرد أكثر سعادة فى مثل هذه الجماعات).. (ص ١٧٧، ١٧٨).

(إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلى، وترجع القيمة العقلية والروحية المنحطة لأغلب بنى الإنسان – إلى حد كبير – إلى النقائص الموجودة فى جوهم السيكلوجى. إذ أن تفوق المادة، ومبادىء دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق.. كما أن الجماعات الاجتماعية الصغيرة التى لها شخصيتها وتقاليدها الخاصة تحطمت بفعل التغيرات التى طرأت على عاداتها. وقد تدهورت الطبقات المثقفة لانتشار الصحف انتشاراً واسع المدى كذا الأدب الرخيص. والراديو ودور السينما.. ومن ثم فإن ازدياد الطبقة الغبية آخذ فى الازدياد أكثر فأكثر

بالرغم من كمال المناهج التى تدرس فى المدارس والكليات والجامعات . . ومن العجيب أن بلادة الذهن توجد غالباً حيثما تتقدم المعرفة العلمية!

إن أطفال وطلبة المدارس يكونون عقلهم من البرامج السخيفة التى توضع لوسائل التسلية العامة . ومن ثم فان البيئة الاجتماعية تناهض نمو العقل بكل قوتها بدلا من أن تعمل على هذا النمو) . . (ص ١٨٤) .

(كما أن الشذوذ الجنسى آخذ فى الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانبا، وأصبح المحللون النفسانيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية . ولم يعد هناك فرق بين الخطأ والصواب . والعدل والظلم . فالمجرمون يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان، وليس هناك من يبدى اعتراضاً على وجودهم . . ولقد جعل القساوسة الدين شبيها بالتموين، لكل فرد منه قسط معين . . وحطموا الأسس الغامضة . ولكنهم لم ينجحوا فى اجتذاب القوم العصريين . ومن ثم فانهم يعظون عبثا أصحاب الأخلاق الضعيفة فى كنائسهم نصف الفارغة كل أسبوع .

إنهم قانعون بدور رجل البوليس الذى يؤدونه . فهم يساعدون الأغنياء ومصالحهم لكى يحفظوا إطار المجتمع الحالى، أو يتملقون شهوات الجمهور مثلما يفعل الساسة)! . . (ص ١٨٦) .

(ليس العقل قويًا كالجسم . ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها . وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم . . ويقول س . و . برس (ان شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر .

وفى الولايات المتحدة تبدى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين . ففى كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالى ستة وثمانين ألف حالة جديدة . فإذا استمر عدد المجانين فى السير على هذا المعدل فان حوالى مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً أو آجلاً ! .

ففى عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠٫٠٠٠ مجنون كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين والمحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١٫٥٨٠ وكان عدد مطلقى السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠٫٩٣٠، ولا تشمل هذه الاحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المستشفيات الخاصة، وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠٫٠٠٠ شخص

ضعاف العقول ولقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية عن أن ٤٠٠,٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة والافادة مما يتلقون من علم.. وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقليًا أكثر من ذلك بكثير. ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الاحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية. **وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التى يواجهها المجتمع العصرى. فإن أمراض العقل خطر داهم: إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى. بل والتيفوس والطاعون والكوليرا. فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب بل لأنها ستضعف حتما التفوق الذى تتمتع به الأجناس البيضاء حاليًا**.. على أنه يجب أن يكون مفهومًا أنه **لا يوجد ضعاف عقول** ومجانين بين المجرمين بالكثرة التى يوجد بها بين أفراد الشعب! صحيح أن عددًا كبيرًا ممن يعانون من النقائص العقلية موجود فى السجون. بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة مازالوا مطلقى السراح.

ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذى تعانى منه المدنية العصرية وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤدى مطلقا إلى تحسين صحتنا العقلية).. (ص ١٨٧، ١٨٨).

(هناك أشكال معينة من الحياة العصرية تؤدى مباشرة إلى الانحلال كما توجد أحوال اجتماعية تهلك الجنس الأبيض).. (ص ٢٦٤).

(إن فى استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عما إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موجودة فى الرجال العصريين! بل أن بعض المراقبين يرتابون فى حقيقتها (فتيودور دريزر) يعتبرها اسطورة خرافية، والحقيقة أن سكان المدينة الحديثة يظهرون تشابهًا كبيرًا فى ضعفهم العقلى والأدبى. فمعظم الأفراد ينتمون إلى طراز واحد. إنهم خليط من الأشخاص مضطربى الأعصاب بليدى الشعور، مغرورين، معدومى الثقة بأنفسهم، أصحاب قوة عظيمة وإن كانوا سريعى التعب. يعانون حدة الدوافع الجنسية برغم ضعفهم وشذوذهم أحيانًا).. (ص ٣١٦).

* * *

هذه فقرات مقتضبة من شهادة دكتور كاريل خاصة (بالإنسان) عامة فى الحضارة العصرية.. وهناك جانب آخر أحببنا أن نفرده وحده.. وهو شهادته فيما

يختص بقضية المرأة وعلاقات الجنسين فى هذه الحضارة وأخطارها على وجود الجنس البشرى، وعلى مستواه العقلى والأدبى.

ونحب أن ندعه هو يدلى بشهادته (العلمية) دون تعليق:

(علينا أن نستوثق من الكيفية التى ستؤثر بها طريقة الحياة فى مستقبل الجنس. لقد كان استجابة النساء للتعديلات التى أدخلتها الحضارة الصناعية على عادات الأسلاف سريعة قاطعة، إذ نقص معدل المواليد فوراً. وقد تبين أثر ذلك بوضوح، كما لمست نتائجه الخطيرة فى الطبقات الاجتماعية وفى الأمم التى سبقت غيرها فى الانتفاع بالتقدم الذى حققته - إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة - بتطبيق الاكتشافات العلمية. فالتعقيم الاختيارى ليس جديداً فى تاريخ العالم. فقد عرف فى مرحلة معينة من مراحل المدينة السابقة.. إنه ظاهرة علمية نعرف دلالتها).. (ص ٣٧).

(إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ومن وجود الرحم والحمل أو من طريقة التعليم. إذا أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك.. إنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية المدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً وأن يمنحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة.. والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل. فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها. وفوق كل شىء بالنسبة لجهازها العصبى. فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبى. فليس فى الامكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها. ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى. فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور. فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال. فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة).. (ص ١١٤).

(ان الأب والأم يساهمان بقدر متساو فى تكوين نواة البويضة التى تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد. ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النووية كل البروتوبلازم المحيط بالنواة.. وهكذا تلعب دوراً أهم من دور الأب فى تكوين الجنين).. (ص ١١٥).

(إن دور الرجل فى التناسل قصير الأمد. أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر وفى خلال هذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيماوية ترشح من دم الأم من خلال أغشية

الخلاص[1]. وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التى تتكون منها أنسجته فإنها تتسلم مواد معينة تفرزها أعضاء الجنين. وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطرة. فحقيقة الأمر أن الجنين ينشأ تقريباً من الأب مثلما ينشأ من الأم: فان مخلوقاً من أصل غريب - جزئيا - قد اتخذ له مأوى فى جسم المرأة. فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل. وقد تتسمم المرأة فى بعض الأحيان بواسطة جنينها، كما ان أحوالها الفسيولوجية والسيكولوجية تعدل به دائما.. وعلى أى حال يبدو أن النساء - من بين الثدييات - هن فقط اللائى يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين. كما أن النساء اللاتى لم يلدن لسن متزنات توازناً كاملاً كالوالدات. فضلا عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن.. صفوة القول أن وجود الجنين، الذى تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم، بسبب صغرها ولأنها - جزئياً - من أنسجة زوجها، تحدث أثراً كبيراً فى المرأة. **إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية. مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة. ومن ثم فمن سخف الرأى أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة. ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلى والمادى ولا أن تبث فى نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان وتبث فيهم.. يجب أن يبذل المربون اهتماماً تشديداً للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى. كذا لوظائفها الطبيعية. فهناك اختلافات لا تنقضى بين الجنسين. ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين)** (ص ١١٦، ١١٧).

(وليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التى لا تشتمل على الحمل فقط. بل أيضاً على رعاية صغارها).. (ص ٣٦٨، ٣٦٩).

وأخيراً:

(من المعروف أن الإفراط الجنسى يعرقل النشاط العقلى. ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة للنمو، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته.. ولقد أكد فرويد عن حق الأهمية القصوى للدوافع الجنسية فى وجوه نشاط الشعور. ومع ذلك فان ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص. ومن ثم يجب ألا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازا عصبيا قويا وسيطرة على أنفسهم.. وبينما يصبح الضعفاء المعتلو

(١) الخلاص: أى المشيمة.

الأعصاب غير المتزنين أكثر شذوذًا عندما تكبت شهواتهم الجنسية فإن الأقوياء يصيرون أكثر قوة بممارسة هذا الشكل من الزهد) . . (ص ١٧٤) .

* * *

ولنأخذ شهادة (ول ديورانت) الكاتب الأمريكي المتفلسف . . وهو رجل لا يمكن أن يقال إنه من أعداء هذه الحضارة . فهو شديد الاعجاب بالتقدم الذى تمثله هذه الحضارة فى مجموعها وهو يبدو معارضا للدين فى جملته، كما أنه ظاهر العداء للاسلام بصفة خاصة . وقد نشرت له جامعة الدول العربية ترجمة أجزاء من كتابه (قصة الحضارة) . ويستطيع قارىء اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الاعجاب بهذه الحضارة فى جملتها كما يلاحظ موقفه من الدين جملة وعداءه الظاهر للإسلام خاصة .

ومع هذا كله فهو يؤدى هذه الشهادة عن هذه الحضارة فى كتابه (مناهج الفلسفة) :

(وثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطرة لأننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الأغراض، وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الدينى وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا ويبدو العالم كله مستغرقاً فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التى أقلقت بال سقراط، نعنى : كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماجن من جهة وبهذا الجنون النووى من جهة أخرى حين نفقد الفلسفة التى بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التى توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات . إننا نهجر فى لحظة مثاليتنا السليمة ونلقى بأنفسنا فى هذا الانتحار الجماعى للحرب وعندنا مئة ألف سياسى وليس عندنا (رجل حكم) واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل . ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكر فى ذلك أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . أننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التى أسكرتنا بخمر القوة ولن ننجو منها بغير الحكمة) . . (ص ٦ – ٧ ج ١) .

(وأختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر فى تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقى قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج لأن النكاح كان يؤدى إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ولم يكن الوالد مسئولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذه فى التغير نتيجة هذا العامل . ويجب على القانون الأخلاقى فى المستقبل أن يدخل فى حسابه هذه التسهيلات الجديدة التى جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة!) (ص ١٢٥ ج ١) .

(فحياة المدنية تفضى إلى كل مثبط على الزواج فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو الجنسى يتم مبكراً عما كان من قبل، كما يتأخر النمو الاقتصادى. فإذا كان قمع الرغبة شيئًا علميًا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً وغير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة. وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعاً للسخرية ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفا وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس. لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى ولم يعد العالم المدنى يحكم به) . . . . (ص ١٢٦ - ١٢٧) .

(ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولاً عنه. ولا فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة فى التعدد لم تهذب لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة. ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء، المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الحلال الذى يحسونه فى حصار قلعة مستسلمة. ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية.

وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله. وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم خلقه الإنسان وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر. غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الاباحية وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب المكشوف تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين وهم فى حمى الفوضى الصناعية من حمى الزواج ورعايته للصحة) .

(ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة. لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر. ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ومنظماً بأسمى ضروب الإدارة العلمية. ويبدو أن العلم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها) . . (ص ١٢٧ — ص ١٢٨) .

ـوأكبر الظن أن هذا التجدد فى الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم داروين على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات – وقد أكسبهم المال جرأة – أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا فى العلم ألف سبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت فى حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل فى الأدب، وعلم النفس صور الجنس مرادفًا للحياة . وقد كان علماء اللاهوت قديمًا يتجادلون فى مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنبا؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : أليس من الاجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها؟ فقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة) . . (ص ١٣٤) .

(وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل فى هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين فى ظل الصناعة والتجارة، وعودت الجنود الوحشية والإباحية . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقى . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية، وحطمت الإيمان بالعناية الالهية، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة، ظهر جيل مخدوع، وألقى بنفسه فى أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقى . . وأصبحت الحكومات فى واد، والشعب فى واد آخر، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها، واستهدفت الصناعات الربح بصرف النظر عن الصالح العام، وتجنب الرجال الزواج خشية مسئوليته، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة، وإلى طفيليات فاسدة، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة، تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية فى الماضى، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية فى الفن والحياة) . . . . (ص ١٣٥ – ١٣٦) .

(لما كان اليوم هو عصر الآلة فلابد أن يتغير كل شىء . فقد قل أمن الفرد فى الوقت الذى نما فيه الأمن الاجتماعى، وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمنا مما كانت، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة، مما يجعل الخطر جاثماً كل لحظة . أما الشباب الذى أصبح أكثر إقدامًا، وأشد غروراً من قبل، فهو عاجز مادياً، وجاهل اقتصاديًا، إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفاً (وقد مرت السنوات) ومع ذلك لم تمتلىء الجيوب بما يكفى للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة فيحتفل الزواج بموت الحب .

(حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل فى تيار المغامرات الواهية فهى واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية. وهدايا من الجوارب، وحفلات من الشمبانيا فى نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية. وقد ترجع حرية سلوكها فى بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية. فلم تعد تعتمد على الرجل فى معاشها وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله فى فنون الحب. فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج المنتظر. متردداً. إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للانفاق عليهما معاً فى مستواهما الحاضر من المعيشة؟

(وأخيراً تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ويعقد عليها لا فى كنيسة. لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جاثماً على إيمانهما المهجور أثر فى قلبيهما. إنهما يتزوجان فى قبو المكتب البلدى (الذى يفوح منه عبير الساسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة. إنهما يرتبطان بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة، لهما الحرية فى أى وقت فى التحلل منه. فلا مراسيم مهيبة. ولا خطبة عظيمة، ولا موسيقى رائعة، ولا عمق ولا نشوة فى الانفعال تحيل ألفاظ عودهم إلى ذكرياتهم لا تمحى من صفحة الذهن. ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً ويتوجهان إلى البيت فى صخب.

(إنه ليس بيتاً! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشىء وسط الحشائش النضرة، والأشجار الظليلة. ولا حديقة تنبت لهما الزهور والخضروات التى يشعران بأنها أبهى وأحلى، لأنها من زرع أيديهما. بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلاً كأنهما فى زنزانة سجن، فى حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيهما فيها طويلاً ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما. ليس هذا المسكن شيئًا روحيًا كالبيت الذى كان يتخذ مظهراً ويكسب روحًا قبل ذلك بعشرين عامًا (الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩) بل مجرد شىء مادى فيه من الجفاف والبرودة ما تجده فى مارستان. فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع لا ينبت لهما الصيف والزرع النضر بل سيلاً من المطر. ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح فى السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر بل المتاعب والذكريات الحزينة.

(وتصاب المرأة بخيبة أمل. فهى لا تجد فى هذا البيت شيئًا يجعل جدرانه تحتمل فى الليل والنهار ولا تلبث إلا قليلاً حتى تهجره فى كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر. ويخيب أمل الرجل، فهو لا يستطيع أن يتجول فى أنحاء هذا البيت يعزى شعوره ببنائه وإصلاح ما تصاب به أصابعه من دق المطارق. ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التى كان يعيش فيها وهو أعزب، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبها

عادياً تلك العلاقات غير البريئة التى كان يعقدها مع المستهترات من النساء، فلا جديد فى هذا البيت، وليس فيه ما ينمو، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته. إذ أين يمكن أن يلعب الطفل، وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة فى المدينة؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب.. فيعتزمان منع النسل.. إلى أن يقع بينهما الطلاق!

(ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح - لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة - يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ومقومات الحياة.. يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع. وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان، وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية ببعثها ضغط الحياة الساخر.. وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف. فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته).. (ص ٢٢٣ - ٢٢٦).

(ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا. أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده. فنحن غارقون فى تيار من التغيير، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها وأى شيء قد حدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم. فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء، فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة. ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً. وسيزداد الزواج الحر، مباحاً كان أم غير مباح ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل. فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يغازلها أحد. سينهار (المستوى المزدوج)، وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شيء على التجربة قبل الزواج. سينمو الطلاق، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة. ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة. وعندما يتم تصنيع المرأة **ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً فى كل طبقة يضحى الحمل أمراً عارضاً فى حياة المرأة** أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت.. وهذا كل شيء!) (ص ٢٣٥ - ٢٣٦).

* * *

والآن نسمع شهادة الأستاذ أبى الأعلى المودودى فى بعض جوانب هذه الحضارة وما أنشأته من آثار تنطوى على تهديد مدمر للحياة الإنسانية ذاتها فضلاً عن خصائص الإنسانية.

من كتاب (الحجاب):

(إن أساطين الفلسفة والأدب، وأقطاب العلوم الطبيعية الذين رفعوا لواء الإصلاح فى القرن الثامن عشر، كانوا – كما سبق لنا الاشارة إليه – يجابهون نظامًا للتمدن فيه أنواع من القيود والسدود، وفيه صلابة من غير مرونة، وعسر من غير يسر، طافحًا بالتقاليد التى لا يقبلها الطبع والضوابط الجامدة، والطرق المناقضة للفطرة والعقل. وزاد طينه بلة انحطاط القوم المتواصل على طول القرون فجعله عقبة كأداء فى كل طريق للرقى. فبجانب كانت النهضة العلمية والعقلية الجديدة تبعث فى نفوس الطبقة المتوسطة أشد الميل إلى التقدم والنبوغ بالعمل والاجتهاد الذاتى. وبجانب آخر كانت على رؤوسهم طبقة الأمراء والزعماء الدينيين تبالغ فى شدهم بالأغلال التقليدية. فمن الكنيسة الى الجندية والقضاء، ومن قصور الامارة إلى المزارع ودور التجارة.. كل شعبة من شعب الحياة وكل مؤسسة للتنظيمات الاجتماعية كانت تجرى من نظام يتيح لبعض الطبقات المخصوصة بحجة امتيازها القديمة وحقوقها المتوارثة أن تعسف وتجور على من لا ينتمى إليها من العاملين الناهضين، فتذهب بثمار أعمالها، وتستأثر بنتاج مواهبهم وكفاءاتهم. فكل محاولة يقوم بها القائمون لإصلاح تلك الحال كانت تخيب وتفشل بازاء أثرة الطبقات المسيطرة وجهالتها.

لهذه الأسباب كلها غدت الطبقات الناشدة للاصلاح تثور فى نفوسهم مع الأيام ثائرة الانقلاب الجامحة حتى غلبت عليهم وعمتهم آخر الأمر نزعات البغى والثورة على هذا النظام الاجتماعى بجميع شعبه وأجزائه.. وراج بين الناس نظرية متطرفة فى الحرية الشخصية، ترمى إلى إعطاء الفرد الحرية التامة، والإباحية المطلقة بازاء المجتمع، فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق فى عمل ما يشاء، والحرية الكاملة فى ترك ما يشاء، وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية.. إلخ) (ص ٦٠ – ٦١).

(ومن غرائب الاتفاق أنه قد واتت هذا الانقلاب الفكرى – وهو فى صدر شبابه – أسباب تمدنية أخرى. ففى هذا العصر قامت الثورة الصناعية الشهيرة، وأعقبتها تغيرات هامة فى الحياة الاقتصادية كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ما هو عون على تحويل وجهة سير الاجتماع الحديث إلى حيث تريد الآداب الانقلابية أن تحولها. وذلك أن تصور الحرية الشخصية الذى نشأ عليه النظام الرأسمالى جاءت الاختراعات الميكانيكية وإمكانات وفرة الإنتاج الصناعى تحكمه وتقويه. فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسسات صناعية وتجارية كبرى وتحولت المراكز الجديدة للصناعة والتجارة إلى مدن عامرة وأصبح ينجر إليها من القرى والأرياف أضعاف الملايين من النفوس. وغلت تكاليف الحياة غلاء فاحشًا وارتفعت أسعار الحاجيات للحياة من المطعم والملبس والمسكن إلى ما فوق طاقة العامة زد على ذلك أن

أضيف إلى حاجيات الحياة ما لا يحصى من وسائل المعيشة المتجددة لأسباب راجع بعضها إلى ارتقاء التمدن وبعضها إلى مساعى أهل الثروة.

(ولكن النظام الرأسمالى لم يوزع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المتع واللذات وأدوات الزينة والزخرفة التى أدخلها فى لوازم الحياة بل هو لم يهيىء للعامة من وسائل المعاش ما يسدون به عوزهم بسهولة من حاجات الحياة الحقيقية - وهى السكنى والطعام واللباس -- فى تلك المدن التى قد زج بهم إليها) . .

(كان من نتائج ذلك كله أن أصبحت المرأة كلاً على زوجها، وأصبح الولد عبئًا على أبيه، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه فضلاً عن أن يعول غيره من المتعلقين به. وقضت الأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحد من أفراد المجتمع عاملاً مكتسبًا. فاضطرت جميع طبقات النساء - من الأبكار والأيامى والثيبات - أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويدا).

(ولما كثر بذلك اختلاط الصنفين، واحتكاك الذكور والإناث، وأخذت تظهر عواقبه الطبيعية فى المجتمع، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية، وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق. فهدأ من قلق الآباء والبنات والأخوة والأخوات، والبعولة والزوجات، وجعلا نفوسهم المضطربة تطمئن إلى أن الذى هو واقع أمام أعينهم لا بأس به فلا يوجسوا منه خيفة إذ ليس هبوطًا وترديا، بل هو نهضة وارتقاء، وليس فسادًا خلقيًا بل هو عين اللذة والمتعة التى يجب أن يقتنيها المرء فى حياته، وأن هذه الهاوية التى يدفع بهم إليها الرأسمالى ليست بهاوية النار، بل هى جنة تجرى من تحتها الأنهار).

(وما وقف الأمر عند هذا الحد بل جاء النظام الرأسمالى الذى رفعت قواعده على هذا التصور للحرية الشخصية فمنح الفرد حقًا مطلقًا من كل قيد أو شرط فى اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق وتبعته فلسفة الأخلاق. فأباحت له كل وسيلة يمكن أن تتخذ لجمع الأموال، وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل والطرق مهلكة أفراد كثيرين.. وبذلك تألف نظام التمدن من أوله إلى آخره على صورة تؤثر الفرد على الجماعة من كل وجهة وليس فيها ضمان للمحافظة على مصالح الجماعة بإزاء أثرة الفرد فانفتحت السبل على إخوان الطمع والأثرة ليغيروا ويعتدوا على المجتمع كيف يشاءون فعمد هؤلاء إلى الغرائز الإنسانية يتحسسون فيها مواطن الضعف والخلل وراحوا يتفننون فى استغلالها لأغراضهم. فقام واحدهم وروج فى الناس سيئة الخمر جلبا للثروة إلى جيبه ولم ينهض منهم من ينقذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون.

وقام آخر وابتلى خلق الله بآفة الربا، ونصب شبكته فى القاصية والدانية وما هنالك من يدفع عن دماء الناس ضر هذا العلق بل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدويبة الفتاكة كى لا يسلم منها أحد بقطرة من دمه وجاء ثالث وأشاع فى المجتمع طرقاً مبتكرة للقمار حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عنصره وما ثمة من يتقدم لحفظ الحياة الاقتصادية من هذه الحمى المحرقة) .

(وما كان من الممكن فى هذا العصر من الأنانية والبغى والعدوان الفردى أن يعزب عن أخوان الأثرة والطمع ذلك الضعف الإنسانى الأكبر . . الشهوة الجامحة . . التى يمكنهم باستثارتها جلب كثير من المنافع . فلم يفتهم ذلك فعلا بل استخدموا غريزة الشهوة العارمة فى الإنسان ما وسعهم وما أمكنهم . إذ أصبح مدار العمل والعناية كله فى المراقص والمسارح ومراكز إخراج الأفلام على أن تستخدم لها الغيد الحسان، ويعرضن على المنصة فى صورة أكمل من التبرج، وفى هيئة أقرب إلى العرى ويجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر ما يمكن من إضرام نار الشهوة فيهم . . جاء قوم فمهدوا الأسباب لإكراه النساء وتقدموا بحرفة البغاء إلى أن أصبحت تجارة دولية منظمة . . وجاء آخرون فتفندوا فى صنع أدوات الزينة والزخرفة . ثم عمموها فى المجتمع ليزيدوا من غريزة التبرج التى جبلت عليها المرأة إلى أن يجعلوها فيهن هوساً، ويجمعوا بذلك الذهب والفضة ملء أكفهم . . وجاءت فئة أخرى فاخترعوا لملابس النساء أزياء كشافة مغرية واستخدموا كل فاتنة الجمال لتلبسها وتغشى بها النوادى والحفلات حتى يقبل عليها الشباب ويفتنوا بها فتغرم الفتيات بتلك الأزياء الجديدة من اللباس وتربح تجارة مخترعيها . وتذرع آخرون بإشاعة الصور العارية والقصص الغرامية والمقالات الخليعة الى استدرار الأموال وأخذوا كذلك يملأون جيوبهم بإصابة العامة بالجذام الخلقى حتى انتهت الحال على مضى الأيام إلى أن لم تبق ناحية من نواحى التجارة خالصة من عنصر الإغراء . وها أنت ذا صرت لا ترى فى زمانك هذا إعلاناً من الإعلانات التجارية فى الجرائد والمجلات إلا وسمته الملازمة البارزة صورة امرأة عارية أو فى حكم العارية، كأنه لم يعد من الممكن أن يكون إعلان ما وافياً بالغرض بدون وجود المرأة، ولا تجد كذلك فندقا من الفنادق ولا مقهى ولا صالة عرض إلا وقد استخدمت فيها المرأة لتعمل عملها المغناطيسى فى الرجال) .

(وكان المجتمع المسكين المخذول لا يملك – حيال ذلك كله – إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصالحه وهى أن يستعين بتصوراته الخلقية على دفع تلك الغارات عن نفسه لكنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداء وعسكر شيطانى عرمرم من العلوم

والآداب، كانا لا يزالان يعملان عملهما فى نسخ النظريات الخلقية ومحوها من النفوس).

(ومن براعة القاتل - والله - أن يحمل قتيله على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورضاه).. (ص ٨٢ - ٨٧).

.. (هذه حال المرأة عندهم.. وأما الرجال فما تزيدهم كل هذه المظاهر الخلابة من الجمال النسوى إلا شوقاً وطموحاً ونهمة. لأن نار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأججة فى الصدر لا تخمد بكل منظر جديد من الخلاعة والسفور، بل تزداد لهيباً، وتتطلب منظراً آخر أكثر منه سفوراً وحسوراً وتكشفاً. ومثلهم فى ذلك كمثل من تصيبه لفحة من السموم فيكاد لا يسكن ظمؤه. كلما ازداد عطشاً وظمأ. فهم دائماً فى أعداد أدوات، وتهيئة أسباب وظروف لاطفاء أوار شهوتهم المبرح بهم، ولا يهدأ لهم دون ذلك بال، ولا هم يستقر لهم قرار. ما هذه الصور العارية، وهذا الأدب المكشوف وهذه القصص الغرامية، وهذه المراقص والمباذل والمسرحيات المشحونة بالانفعالات والنزعات العارمة.. ما هذه كلها إلا نماذج من جهودهم وحيلهم التى يتعاطونها لإخماد الشهوات الجامحة - ولكن فى الحقيقة لاستثارتها والنفخ فيها - التى أججها هذا المجتمع الماجن، وتلك الحياة الاجتماعية الضالة فى صدر كل فرد من أفرادهم.. ولكنهم سموها بالفن لإخفاء هذا الضعف الكامن فى نفوسهم وفى حياتهم).

(ولا يزال هذا الداء الوبيل - من غلبة الشهوات البهيمية - ينخر فى كيان الأمم الغربية وينتقص من قوة حياتها بسرعة هائلة. والتاريخ يشهد أنه ما سرى هذا الداء فى مفاصل أمة إلا أوردها موارد التلف والفناء. ذلك بأنه يقتل فى الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية بلقائه وتقدمه فى هذه الحياة. وأنى للناس - لعمر الله - ذلك الهدوء وتلك الدعة والسكينة، التى لابد لهم منها لمعالجة أعمال الإنشاء والتعمير مادامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب، وتكون عواطفهم عرضة أبدا لكل فن جديد من الإغراء والتهييج، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة. قوى التحريض، ويكون الدم فى عروقهم فى غليان مستمر بتأثير ما حولها من الأدب الخليع، والصور العارية، والأغانى الماجنة. والأفلام الغرامية. والرقص المثير، والمناظر الجذابة من الجمال الأنثوى العريان، وفرض الاختلاط بالصنف المخالف. - أستغفر الله - بل أنى لهم ولأجيالهم الناشئة أن يجدوا فى غمرة هذه الهيجات الجو الهادىء المعتدل الذى لا مندوحة عنه لتنشئة قواهم الفكرية والعقلية وهم لا يكادون يبلغون الحلم

حتى يغتالهم غول الشهوات البهيمية ويستحوذ عليهم . وإذا هم واقعو بين ذراعى هذا الغول فأنى لهم النجاة منه ومن غوائله وعواديه!) . . (ص ٣٧ - ٣٩) .

(كان أكثر الأمم تأثراً بحركة منع التناسل هى فرنسا فكانت نسبة المواليد فيها إلى الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالى - عند نشوب الحرب العالمية الأولى - ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع والثمانين تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات . وأما المقاطعات السبع والستون الباقية فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد . وكان معدل الوفيات فى بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٣٠ - ١٧٠ بإزاء كل مئة مولود . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ودفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين، ورجال محاربين، وأنه أن ضحى - على الفرض - بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها فى سبيل الدفاع عن الوطن فى تلك الآونة، فإنه لن تمكن النجاة من كرة العدو الثانية . فكان من انبعاث هذا الشعور فى نفوس الفرنسيين أن تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم وجعل الكتاب والصحفيون والخطباء - وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة - كلهم يهيبون بالناس من كل جانب وبصوت واحد : أن يكثروا من التوليد والتناسل، ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والزواج ونادوا أن العذراء التى تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن، تستحق العز والكرامة لا التعب والملامة! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة الحال حافزا قوياً لدعاة الحرية والاباحية فانتهزوا الفرصة السانحة وبثوا جميع ما كان قد بقى فى جعبة فكرهم الشيطانى من النظريات) . . (ص ٧٢ - ٧٣) .

(إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم اضمحلال قواهم الجسدية وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم، وتعبد الشهوات يكاد يأتى على قوة صبرهم وجلدهم، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم . فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسى يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب فى المتطوعة للجندى الفرنسى على فترة كل بضع سنين لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر فى الأمة على مسير الأيام . . وهذا مقياس أمين يدلنا - كدلالة مقياس الحرارة فى الصحة والتدقيق - على كيفية اضمحلال القوى الجسدية فى الأمة الفرنسية) . . (ص ١١٣) .

(والنكبة الثانية العظيمة التى قد جرها على التمدن الفرنسى طغيان

الشهوة المطلقة ورواج الإباحية وقبولها : هى خراب النظام العائلى وتقوض بنيانه) . . (ص ١١٤) .

(والأمة الفرنسية – كما أسلفت – لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عامًا متوالية . ففى بعض السنين تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد ، وفى الأخرى تتساويان وفى الثالثة لا تزيد على نسبة الوفيات إلا بقليل جداً . وبجانب آخر لا يزال عدد الجالية المهاجرين فى فرنسا ينمو ويكثر فكانوا قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليوناً من سكان فرنسا الأصليين سنة ١٩٣١ . وان استمرت الحال على ما هى عليه الآن ، فلا يستبعد أن تعود الأمة الفرنسية عند ختام القرن العشرين أقلية فى وطنها هى) . . (ص ١٣٢) .

(ولا يحسبن أحد أن الأمة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذ عن غيرها فى هذا الباب . بل الأمر أن جميع الأمم التى قد آمنت بما ذكر آنفا من نظريات الأخلاق ومبادىء الاجتماع المتطرفة تماثلها وتجاربها فى تلك الحال) . (ص ١٢٣) .

نشر فى جريدة فرى برس بدوترويت الأمريكية مقال جاء فيه :

(إن ما قد نشأ بيننا الآن من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاحش العلاقات غير المشروعة – الدائمة والعارضة – بين الرجال والنساء يدل كله على أننا راجعون القهقرى إلى البهيمية . فالرغبة الطبيعية فى النسل إلى التلاشى ، والجيل المولود حبله على غاربه ، والشعور بكون تعمير الأسرة والبيت لازما لبقاء المدنية والحكم المستقل ، يكاد ينتفى من النفوس . وبخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال لمآل المدينة والحكومة وعدم النصح لها) . . (ص ١٣٧) .

(كل هذا الاتباع لأهواء النفس والنفور من تبعات الزوجية والتبرم بالحياة العائلية والارتخاء فى الروابط الزواجية ، يكاد يذهب فى المرأة عاطفة الأمومة الفطرة التى هى أشرف العواطف الروحية وأسماها فى النساء والتى لا يقف عليها بقاء الحضارة والتمدن فحسب ، بل بقاء الإنسانية جمعاء وما نجمت سيئات منع الحمل ، وإسقاط الجنين ، وقتل الأولاد ، إلا بنضوب هذه العاطفة فى نفس المرأة فالمعلومات عن تدابير منع الحمل موفورة لكل فتى وفتاة فى الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من قيود القانون . والآلات والعقاقير المانعة للحمل معروضة للبيع فى الحوانيت كالسلعة المباحة تستصحبها دائماً بنات المدارس والكليات – بله عامة النساء – لكى لا تفوت إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب ، ان نسى خدينها أن يأخذ أدواته معه . فيكتب القاضى (لندسى) فى محكمة دنفر : (٤٩٥ بنتا فى السن الباكرة من بنات المعاهد الثانوية اعترفن لى بأنهن قد جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان إلا أنه لم تحمل

منهن إلا خمس وعشرون . وأما الباقيات فسلم بعضهن من الحمل بمحض الاتفاق . ولكن كانت لأكثرهن خبرة كافية بتدابير منع الحمل . وهذه الخبرة قد عمت فيهن الى حد لا يكاد الناس يصيبون فى تقديره) . . (ص١٣٩) .

وقد ذكرت مجلة أمريكية هذه الأسباب التى لا تزال تؤدى إلى رواج الفحشاء وقبولها هناك بالكلمات الآتية :

(عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهى جميعها فى تسعير سعير لأهل الأرض : أولها الأدب الفاحش الخليع الذى لا يفتأ يزداد فى وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة . . والثانى الأفلام السينمائية التى لا تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب ، بل تلقنهم دروساً عملية فى بابه . . والثالث انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء الذى يظهر فى ملابسهن بل فى عريهن وفى إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام . . هذه المفاسد الثلاثة فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام . ولابد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر . فإن نحن لم نحد من طغيانها فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للشهوات والأهواء موارد التهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء ومشاغل ورقص وغناء) . . (ص ١٢٩) .

* * *

والآن نستمع إلى شهادة الطبيبة التى تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) بعنوان (جنس ثالث فى طريقه إلى الظهور) من مشاهداتها فى (فيينا) :

(. . شاءت الظروف أن أذهب فى عطلة الأحد لزيارة صديقة لى طبيبة باحدى ضواحى (فيينا) -- بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية فى دار الكتب – وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبى حين فتحت لى صديقتى باب بيتها معجلة وفى يدها (بطاطس) تقشره . ثم قادتنى فى لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هنا .

(ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة . فابتدرتنى قائلة :

(ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة فى المطبخ يوم الأحد !

(قلت ضاحكة :

(أما العمل يوم الأحد فربما فهمته . وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك ، فهذا ما لم انتظره .

(فردت :

(لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب . فالعمل فى عطلة الأحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتى الوحيدة لكى أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالى بالمطبخ فلعلى لم أتجاوز به نطاق مهنتى . إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معى سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

(ولما سألتها عن سر هذا القلق -- مع استقرار الوضع الاجتماعى للمرأة الغربية – أجابت بأن ذلك القلق، لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا فى المرأة العاملة . وذلك لما لحظوا من تغير بطىء فى كيانها لم يثر الانتباه أول الأمر لولا ما سجلته الاحصاءات من اطراد النقص فى المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختيارى محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والارضاع تحت ضغط الحاجة والاستقرار فى العمل . ولكن ظهر من استقراء الاحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات، لم يكن أكثره عن اختيار بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه فى الغالب لا يرجع إلى عيب عضو ظاهر . مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارىء على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادى والذهنى والعصبى – عن قصد أو غير قصد -- عن مشاغل الأمومة ودنيا حواء وتشبثها بمساواة الرجل ومشاركته فى ميدان عمله .

(واستند علماء الأحياء فى هذا الفرض --، نظريًا – إلى قانون طبيعى معروف وهو أن (الوظيفة تخلق العضو) ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هى التى خلقت فى حواء خصائص مميزة للأنوثة لابد أن تضمر تدريجيًا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه (عالم الرجل) .

(ثم تابع العلماء هذا الفرض فان التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظرًا وإذا بهم يعلنون – فى اطمئنان مقرون بشىء من التحفظ – عن قرب ظهور (جنس ثالث) تضمر فيه خصائص الأنوثة التى رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

(وثارت اعتراضات . . منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمى حقها فى العمل ويتيح لها بحكم القانون فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب .

(وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائمًا الخوف من أعبائه والاشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها فى محل العمل . ثم أن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا فى حدود ضيقة وتحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج فيرد عليه بأن هذا الخروج - على قرب العهد به - قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل، وإصرار عنيد على التشبه به - مما عجل ببوادر التغيير لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها فى ضميرها .

(وما يزال المهتمون بهذا الموضوع، يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ويستقرئون فى اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة) . . (جريد الأهرام) .

* * *

ومن مقال إخبارى فى (أخبار اليوم) - من استوكهلم - لموسى صبرى :

(قال لى أستاذ جامعى سويدى :

(إننا نعلم أبناءنا وبناتنا فى المدارس الثانوية وفى سن مبكرة، كل شيء عن الجنس واضحًا صريحًا . ليست لدينا مشكلة جنس . أن المتعة الجنسية كمتعة الطعام اللذيذ، ومتعة الملابس الأنيقة، والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبل الزواج هى شيء طبيعى عادى، وما يباح للشاب يجب أن يباح للفتاة .

. . . (وخلاصة القول ان حرية الحب) فى السويد تعنى أن نداء الجنس هو نداء طبيعى، كنداء البطن، ونداء العقل . . وليس فيه ما يدعو إلى كبته أو شدة كتمانه . . ولقد تطور بهم مجتمعهم إلى هذه النظرة المجردة إلى الجنس بين الرجل والمرأة - وقد فوجئت وأنا أتروض فى حدائق (سكانسن) ذات صباح مشمس بوجود بركة مياه لاستحمام الصبية والبنات . ورأيت الأولاد والبنات يستحمون فى الماء عرايا كما ولدتهم أمهاتهم وهم ما بين سن الثامنة والحادية عشرة . . وتبددت المفاجأة تمامًا عندما عرفت أن الكبار أيضًا من النساء والرجال ينزلون إلى البحر ويمرحون على الشاطىء وهم عرايا تمامًا . . ليس هذا هو أسلوبهم فى التصييف فهناك من يرتدى المايوه . ولكن نزول (شلة) من الجنسين إلى البحر - وهم عرايا - أمر لا يلفت النظر ولا يدير أى رأس ! .

والسؤال : وماذا تفعل الفتاة إذا أصبحت أماً بغير زواج؟

(والجواب : إذا تخلصت من جنينها كان بها . وإذا لم تتخلص فإن الدولة كفيلة

برعاية الطفل وحضانته وتعليمه بالمجان حتى سن السادسة عشرة. وهو يقيد فى سجل مواليد باسم أمه. أو باسم الأب - إذا اعترف به - والمجتمع لا يعطى الابن غير الشرعى أو الأمهات غير المتزوجات إلا كل تقدير واحترام!

وهنا نتساءل - فى جد وخطورة:

إذا كانت السويد تعتبر كدولة من أرقى دول العالم، فهل نستطيع أن نتصور أننا - وباقى الدول - سننجرف إلى هذا المصير إن عاجلاً أو آجلاً؟

(وتأكيد تقديم السويد - كأرقى دول العالم - أمر تؤيده الإحصاءات وتعترف به كل الأبحاث العلمية.

(إن ما يخص الفرد الواحد فى السويد من الدخل القومى يساوى ٥٢١ جنيها مصريًا فى العام. أى حوالى ٤٣ جنيها فى الشهر الواحد.

(ووصل نظام الحكم الاشتراكى فى السويد إلى ما يقارب محو الفروق تماماً بين الطبقات بفرض الضرائب التصاعدية وإيجاد مختلف أنواع التأمينات الصحية والاجتماعية التى لا تجدها فى دول أخرى.

(كل مواطن يستحق نصيبه من التأمين الصحى وإعانات المرض التى تصرف نقدا والعلاج المجانى فى المستشفيات.

(تدفع إعانة أمومة لكل النساء. تشمل هذه الإعانة مصاريف الولادة والرعاية الطبية فى المستشفى وإعانة إضافية لكل مولود.

(التأمين ضد إصابات العمل إجبارى.

(شروط الإعانات فى حالة البطالة هى أسخى شروط معروفة دوليًا.

(تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة أقرب إلى الخيال. منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيهاً فى العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة. رعاية صحية مجانية. مصاريف انتقال مجانية للإجازات يتمتع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة. مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم.

(التعليم فى جميع مراحله بالمجان، مع تقديم إعانات ملابس، واعانات معيشية لغير القادرين وتقدم للطلبة قروض دراسة تصل الى ٢٥٠ جنيها للطلبة المجتهدين.

(تقدم الدولة قروضاً لتأثيث منازل العرسان تصل الى ٣٠٠ جنيها بفائدة بسيطة تسدد على خمس نسوات.

(إن ثلث الضرائب التى يدفعها الشعب السويدى تنفقها الدولة فى التأمينات الاجتماعية، وتدفع الدولة ٨٠ فى المائة منها فى مساعدات نقدية. أن أضخم ميزانية هى ميزانية وزارة الشئون الاجتماعية التى وصلت هذا العام إلى ٣٣٤ مليون جنيه. ثم

تليها ميزانية وزارة التربية وقد بلغت ١٣٣ مليون جنيه. بينما تنزل ميزانية القصر الملكى إلى حوالى ٤٠٠ ألف جنيه فقط.

(مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار فى الحياة وتكوين أسرة فان الخط البيانى لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض.. مع وجود الدولة التى تكفل للفتاة إعانة زواج ثم تكفل لطفلها الحياة حتى يتخرج فى الجامعة. فان الأسرة السويدية فى الطريق إلى عدم انجاب أطفال على الإطلاق.

(يقابل هذا:

(انخفاض مستمر فى نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين..

(وارتفاع مستمر فى نسبة عدد المواليد غير الشرعيين..

(مع ملاحظة أن ٢٠ فى المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدا.

(لقد بدأ عهد التصنيع وبدأ معه المجتمع الاشتراكى فى السويد عام ١٨٧٠. كانت نسبة الأمهات غير المتزوجات فى ذلك العام ٧ فى المائة وارتفعت هذه النسبة فى عام ١٩٢٠ إلى ١٦ فى المائة، والإحصائات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة فى الزيادة.

(**إن نسبة الطلاق فى السويد هى أكبر نسبة فى العالم كه**. إن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات - طبقاً للاحصاءات التى أعدتها وزارة الشئون الاجتماعية بالسويد. والنسبة بدأت صغيرة وهى مستمرة فى الزياة.. فى عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقاً بين كل ١٠٠ ألف من السكان. ارتفع هذا الرقم الى ١٠٤ فى عام ١٩٥٢. ثم ارتفع الى ١١٤ فى عام ١٩٣٤.

(سبب ذلك أن ٣٠ فى المائة من الزيجات تتم اضطراراً تحت ضغط الظروف بعد أن تحمل الفتاة، والزواج بحكم (الضرورة) لا يدوم بطبيعة الحال. ويشجع على الطلاق أن القانون فى السويد لا يضع أية عقبة أمام الطلاق، إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جداً. وإذا طلب أحدهما الطلاق فان أى سبب بسيط يقدمه يمكن أن يتم به الطلاق.

(وإذا كانت (حرية الحب) مكفولة فى السويد.. فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد.. أنها (حرية عدم الإيمان بالله)! لقد انتشرت فى السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الاطلاق وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمارك أيضاً. فالمدرسون فى المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها فى عقول النشء والشباب.. **أن الكنائس موجودة فى كل مكان ولكنها أقرب إلى التحف الأثرية. والدولة تصرف على الكنائس وتدفع مرتبات القسس. ولكن**

الكنيسة لا تفتح أبوابها إلا صباح الأحد لبضع ساعات ولا يؤمها إلا عدد محدود جداً من العجائز أمثال جدتى وجدتك، والنكتة التى تسمعها منهم: انهم حددوا ساعات العمل للكنيسة بثلاث ساعات فى الأسبوع. وانها من حقها بعد ذلك أن تأخذ أجازة.. لم يعودوا يؤمنون بأن الدين هو وسيلة إلى إشباع حاجات النوع الإنسانى!

(وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد فى السويد وباقى دول اسكندنافيا. إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف وإلى الإدمان على المخدرات والخمور.

..(وقد قدر عدد أطفال العائلات التى لها أب مدمن بحوالى ١٧٥ ألفًا. أى ما يوازى ١٠ فى المائة من مجموع أطفال العائلات كلها.. وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف.. إن من قبض عليهم البوليس السويدى فى حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥، ١٧ يوازى ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عامًا! وعادة الشراب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيىء إلى أسوأ.. ويتبع ذلك حقيقة رهيبة:

إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ فى السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية. ولا شك أن التمادى فى التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية.. ويزيد من دواعى تفكك الأسرة ويقربهم إلى هوة انقراض النسل..

(قال لى صحفى نرويجى:

(إن مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان..

(قلت له:

(وماذا تفعل حكومتكم لدرء هذا الخطر؟

(أجاب متألما:

(إن حكومتنا أيضًا ليست مؤمنة).. (أخبار اليوم).

* * *

وبدون أى تعليق أو تعقيب نغلق هذا الفصل على هذه النذر الرهيبة فهى ناطقة بذاتها. إن الذين يخالفون قانون الفطرة، لا يمكن ان يمضوا بلا عقاب.. وهو عقاب رهيب ولو تفتحت عليهم أبواب كل شىء من خيرات الأرض ورخاء العيش ومضاعفة الدخل، والضمانات المادية الخيالية. فللحياة الإنسانية قوانيها الفطرية الصارمة التى لا تجامل، ولا تتخلف، ولا تلين.

هذه القوانين هى التى يقول عنها الدكتور الكسيس كاريل :

(إنهم لم يدركوا أن أجسامهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية . وهى قوانين أكثر غموضاً - وإن كانت تتساوى فى الصلاة - مع القوانين الدنيوية . كذلك لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم) .

ولقد حذر الله - سبحانه - عباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين . وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه المتمشى مع سنته فى الكون فلا تكون لهم من عواقبها نجاة :

﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥] .

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [يونس : ٢٤] .

وصدق الله العظيم .

* * *

ولعل بهذا نوضح موضوع المؤيدات الفطرية التى تجعل الإنسان أمام طريق وحيد عليه أن يسلكه هو طريق الله المتمثل بالإسلام دينه الحق ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ [آل عمران : ١٩] . الإسلام الذى أنزله الله على محمد عبده ورسوله ﷺ ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

* * *

القسم الثانى

المؤيـدات الربانيـــة

ويقسم إلى قسمين :

(أ) المؤيدات الربانية فى الدنيا .

(ب) المؤيد الربانى الثانى : الآخرة

(أ) المؤيدات الربانية فى الدنيا

ما ذكرناه فى المؤيد السابق من عقوبات الفطرة هو من نوع النتائج المترتبة على مقدماتها، أو من نوع تحقيق القضية إذا وجدت أسبابها. أما المقصود بهذا المؤيد هنا فهو العقوبة المترتبة على الذنب بفعل الله قهراً للمذنب والكل فى الحقيقة فعل الله، ولكن ذلك عقوبة تظهر نتائجها بشكل واضح دون أن يراعى للقهر الالهى تدخل ظاهر فيها. وهذا يرى فيه بشكل ظاهر تدخل القهر الالهى.

وحتى يتضح هذا المقام نضرب مثالاً:

إن من عقوبات الفطرة على اللواط هى اكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء مما يؤدى إلى الإخلال بعملية التوالد لبقاء النوع.

فأمة كأمة لوط مثلاً عندما أصيبت بهذا الداء واستشرى بها فإنه يعرضها إلى الفناء عملياً إذا مشت بهذا الانحراف إلى منتهاه فهذه عقوبة فطرية على جريمة بعينها ولكن زيادة على ما يترتب على هذه العقوبات الفطرية فإن الله عذب هذه الأمة عذاباً آخر استأصلها به إذ جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود.

فالذى نعنيه فى هذا الباب هو هذا النوع من العقوبات الآلهية التى يعاقب بها المنحرفون عن أمره والمجرمون.

وقد قص الله علينا فى القرآن أنواعًا من هذه العقوبات عاقب بها أقواماً أو رجالاً لارتكابهم جرائم الإنحراف عن أمره وأمر رسله عليهم الصلاة والسلام ننقلها أولاً ليتضح لنا الأمر ثم نعقب على ذلك ببعض التعليقات وعلى هذا فبحثنا هذا سينقسم إلى قسمين أولاً: نماذج من العقوبات، ثانيًا: تعليقات.

أولاً: نماذج من العقوبات

(أ) قارون:

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۞ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن

ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨٢].

(ب) أصحاب الجنة:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ١٧ - ٣٣].

(جـ) صاحب جنتين:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا

زَلَقًا* أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا* وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٣٢ – ٤٣].

(د) المعتدون من اليهود على حرمة يوم السبت:

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣ – ١٦٦].

(هـ) قوم نوح:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ* وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٩ – ١٦].

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٦، ٧٧].

(و) عاد:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ١٨ – ٢١].

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦ – ٨].

(ز) ثمود:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٢٣ - ٣١].

(ح) قوم لوط:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٦١ - ٧٧].

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٤].

(ط) قوم شعيب:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم

بَيِّنَةٌ مِن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥ – ٩٣].

(ى) فرعون وقومه:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣ – ١٣٦].

(ك) بنو إسرائيل:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نفيراً * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخرَة ليَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَليَدْخُلُوا الْمَسْجدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَليُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للْكَافرِينَ حَصِيراً ﴾ [الاسراء: ٤ — ٨].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لقَوْمه يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نعْمَةَ اللَّه عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلبُوا خَاسرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا منْهَا فَإِن يَخْرُجُوا منْهَا فَإِنَّا دَاخلُونَ * قَالَ رَجُلان منَ الَّذينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهمَا ادْخُلُوا عَلَيْهمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالبُونَ وَعَلَى اللَّه فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمنينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلكُ إِلاَّ نَفْسي وَأَخي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسقينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهمْ أَرْبَعينَ سَنَةً يَتيهُونَ في الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسقينَ ﴾ [المائدة: ٢٠ — ٢٦].

(ل) أصحاب النبي ﷺ :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُوله وَعَلَى الْمُؤْمنينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذينَ كَفَرُوا وَذَلكَ جَزَاءُ الْكَافرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ منْ بَعْد ذَلكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥ — ٢٧].

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنه حَتَّىٰ إِذَا فَشلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ في الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْد مَا أَرَاكُم مَّا تُحبُّونَ منكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ليَبْتَليَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمنينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ثانياً : تعليقات :

(أ) يلاحظ من الأمثلة القرآنية السابقة أن عقوبة القهر الالهى في الدنيا تأتى بأشكال متعددة فقد تكون غرقاً، وقد تكون صاعقة، وقد تكون مرضاً، وقد تكون

زلزالا، وقد تكون... وفى الحقيقة ما من مصيبة يصاب بها الإنسان إلا وهى أثر من آثار هذا القهر، وقد ذكرت هذا المعنى الآية ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]. وإن لم تكن المصيبة عقوبة فهى تربية أو امتحان أو ترقية لمقام ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

(ب) أن عقوبة القهر الالهى العام لا تظهر إلا إذا سبقها رخاء، لذلك كان من سنة الله أن يمد للظالمين والكافرين، فترى الظالمين والكافرين مهما ذكروا لا يتذكرون، وعندئذ تنزل بهم عقوبة القهر الالهى فإذا هم زاهقون وقد ذكرت هذا المعنى الآيات:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٢ – ٤٥].

(جـ) يلاحظ أن الكافرين والغافلين لرؤيتهم اضطراد نزول البلاء والرخاء عليهم وعلى الناس غيرهم لا يظنون أن لله دخلاً فيما يحدث من ذلك بل يتصورون أن ذلك محض عادة طبيعية ومصادفة غير مقصودة فإذا وقع زلزال لا يربطون بين الزلزال وعقوبة الله وإذا حدث خسف لا يربطون بينه وبين عقوبة القهر الإلهى وإذا حدث غرق أو عواصف أو صواعق فهذا كله لا علاقة لعقوبة القهر فيه مادام نازلا بغيرهم ولم يستأصلوا بعد وقد ذكر القرآن هذا المعنى بقوله:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥].

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣].

(د) وعلى عكس الكافر والغافل يكون المسلم، فما من مصيبة تنزل به مهما كان شأنها صغيرة أو كبيرة، عامة أو خاصة، إلا وتجعله يحس أنه فعل شيئًا استحقها به فيرجع إلى الله ويتوب.

﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وينتج عن هذا أن المسلم يأخذ درساً من المصيبة فترجعه إلى الله، ويفكر ماذا فعل حتى استحقها، فيحاسب نفسه ويطهرها. وينتج عن ذلك كذلك أن يرضى بالمصيبة لما أنها عقوبة عاجلة على ذنب فى الدنيا تكفره عنه فيصبر ويحتسب ولا يتضجر، وفى الحديث:

(ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها) متفق عليه.

(ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) متفق عليه.

(ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

عن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله.. أى الناس أشد بلاء؟ قال: (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان شديداً فى دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة) أخرجه الترمذى.

وعن جابر رضى الله عنه: دخل رسول الله ﷺ على أم السائب رضى الله عنها فقال ﷺ: (مالك تزقزقين)؟

فقالت: الحمى.. لا بارك الله فيها. فقال: (لا تسبى الحمى فإنها تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكير خبث الحديد).

(هـ) إن عقوبة القهر الالهى فى الدنيا ليس شرطاً ان تنزل بكل كافر أو منافق، قد تنزل وقد يمد الله لأمثال هؤلاء ليعذبهم فى الآخرة، ولعذاب الآخرة أشد:

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ

أن يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوت وَقَدْ أُمِرُوا أن يَكْفُرُوا به وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [النساء: ٦٠ – ٦٢].

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ [المدثر: ١١– ١٧].

(و) وقد تكون عقوبة القهر الالهى متمثلة بتسليط أمة على أمة، أو الناس على الناس. قال تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

ولعل الصورة المخيفة للواقع القريب ترينا مظاهر هذا.

لقد خلق الله هذا الكون ليستخدمه الإنسان لصالحه، وإذا بالإنسان يستخدمه لتدمير كل شيء. ولعل ما حدث فى الحرب العالمية الأولى والثانية مثالان على هذا النوع من القهر.

وقد يسلط الله على المسلمين بذنوبهم غير المسلمين، وتروج بين الناس حكمة تمثل هذه السنة لله تقول: (إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى) وفى الآثار ما يؤيد هذه الحكمة، وفى الواقع ما يدل عليها.

(ز) مما تقدم تعلم أن عقوبة القهر الالهى تظهر بمظاهر متعددة وكلها مستورة بعالم الأسباب.

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤].

ونعيد هنا الفكرة التى ذكرناها أكثر من مرة:

أن الكافر لا يرى إلا السبب المادى القريب.

أما المؤمن فيرى أن كثيرا من الأسباب المادية ترافقها أسباب غيبية. يعرفها بواسطة الرسول الصادق، كالموت له سبب حسى كالسكتة القلبية، وسبب غيبى هو نزع الروح من الجسد بواسطة الملك.

ثم المؤمن بعد ذلك يرى أن السبب الحسى والسبب الغيبى حال وجوده يكونان

بقدرة الله دائمًا وأبداً. ومن ثم تكون عند المؤمن ملكة الاعتبار، وتموت هذه الملكة عند الكافر. إن المؤمن يرى الله وراء كل شيء، وراء النعمة والنقمة، والنصر والخذلان، والضر والنفع، والبأساء والضراء ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. والكافر أعمى البصر والبصيرة، لا يرى إلا ظواهر الأشياء ولا يعرف حقائقها:

﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [الروم: ٧].

وهو دائما يعذب ويشقى جسدياً أو نفسياً، وهو لا يحس بأن ذلك بسبب بعده عن طريق الله ودينه وشريعته، أي الإسلام.

* * *

(ب) المؤيدات الربانية فى الآخرة

الكلام عن الآخرة يأتى فى الدرجة الثانية بعد الكلام عن الله جل جلاله، ولكنا بدأنا دراساتنا فى الأصول الثلاثة بالكلام عن الله وختمناه بالحديث عن الآخرة.. على اعتبار أن الآخرة هى النهاية، والإسلام هو الطريق إليها، فهى خاتمة المطاف.

وقد حرصنا أثناء الكلام عن الآخرة أن نعرض للموضوع بأساليب متعددة، وأن ننقل فيه لأعاظم من كتبوا عنه ليتأكد مضمونه فى القلب تأكيداً تاماً. فبدأنا الحديث عنه بنقول للشيخ سعيد النورسى. وختمنا الحديث عنه بكلام للمودودى فيه. وتصرفنا فى كلامهما نوع تصرف لا يخل بالمعنى لينسجم مع طبيعة هذا الكتاب. وإذا كثر النقل فى هذا الفصل، فلأنا نود تقليب الحديث حتى لا يبقى لكافر حجة، ولم نرد فى الكتاب كله إلا تربية الإيمان، فما أعاننا على ذلك أخذناه دون نظر إلى ما يمكن أن ينتقدنا فيه الناقدون.

ولنبدأ الآن الحديث عن اليوم الآخر:

(١)

يقول الشيخ سعيد النورسى:

(انظر إلى قوة حقانية الحشر والآخرة، فلا يمكن أن يكون سلطان بلا مكافأة للمطيعين ومجازاة للعاصين.

لاسيما: إذا كان له كرم عظيم يقتضى الإحسان، وعزة عظيمة تقتضى الغيرة، وهذه الدار لا تفى بعشر معشار ذلك الكرم وتلك العزة.

لاسيما: إذا كانت له رحمة واسعة تقتضى فضلاً يليق بسعة رحمته، وله جلال يقتضى تربية من يستخف به ولا يوقره.

لاسيما: إذا كانت له حكمة عالية تقتضى حماية شأن سلطنته، برحمة الملتجئين إلى جناحه، وتقتضى المحافظة على حشمة مالكيته بمحافظة حقوق رعيته.

لاسيما: إذا كانت له خزائن مشحونة، وكرم مطلق، وهذا يقتضى دار ضيافة دائمة ووجود ضيفان على الدوام.

وكيف وله كمالات تقتضى التشهير بالمجرمين.

وكيف وله جمال بلا مثل، ولطائف حسن بلا نظير، وهذا يقتضى إشهاداً ومشاهدين، ومشتاقين متحيرين، إذ الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل.

لا سيما: ومشاهد آثار سلطانه تدل على أنه فى نهاية العظمة.

انظر إلى رعيته فكأنما اجتمعوا فى منزل سفر، يملأ ويفرغ كل يوم، وكأنما حضروا فى ميدان امتحان يتبدل كل وقت، وها هم توقفوا ليشهدوا غرائب صنعة الملك، فهذا كله يقتضى بالضرورة أن يوجد خلف هذا المنزل والميدان والمشهد دارا دائمة، مليئة مشحونة بأجود مما رأوا خلال السفر.

لاسيما: إذا كان الملك فى نهاية الدقة فى صفة الحاكمية، فهو يكتب ويستكتب أدنى حاجة وأهون عمل وأقل خدمة، ويأمر بأخذ صورة كل ما يجرى فى ملكه، ويستحفظ كل فعل وعمل، فهذا الحفظ يقتضى المحاسبة، وخاصة فى أعظم الأعمال من رعيته.

لاسيما: إذا كان الملك قد وعد وأوعد مكرراً بما إيجاده عليه هين يسير، ووجوده للرعية فى نهاية الأهمية، فخلف الوعد غاية فى البعد عن العزة والاقتدار.

لاسيما: إذا أخبر كل رسول للملك أنه أعد للمطيعين والعاصين دار مكافأة وجزاء، وأنه يعد وعداً قوياً، ويوعد وعيداً شديداً، وهو أجل وأعز منه أن يذل ويتنزل بخلف الوعد، والمخبرون متواترون وهذه السلطنة العظيمة لا تقوم على هذه الأمور الزائلة الواهية المتبدلة السيالة فقط.

لاسيما: إذا أظهر الملك فى المنازل الزائلة، والميادين الهائلة آثار حكمة باهرة، وعناية ظاهرة، وعدالة عالية، بحيث يعرف باليقين من له بصيرة أنه لا يمكن أن يوجد أكمل من حكمته وعنايته ورحمته وعدالته، فلو لم يكن فى دائرة مملكته أماكن دائمة خالدة للزم إنكار هذه الحكمة المشهودة، وإنكار هذه الرحمة الظاهرة، وإنكار هذه العدالة المنظورة.

لاسيما: والكرم بلا نهاية يقتضى الامتنان والتنعيم بلا نهاية، وهما يقتضيان قبول المنة والتنعيم بلا نهاية، وهما يقتضيان دوام وجود الشخص المكرم ليقابل دوام التنعم بشكر المنة الدائمة وإلا لصار المنعم عليه يتنغص ليتذكر الزوال الأبدى.

* * *

إن الحقائق المستقرة الثابتة أن صاحب الجمال يجب أن يشاهد جماله وينظر إلى محاسنه، فالحسن والجمال يقتضيان الشهود والإشهاد.

إن هذا العالم كما يستلزم صانعه بالقطع واليقين، فصانعه يستلزم الآخرة بلا شك ولا ريب.

* * *

لا سيما: وأن مالك هذا العالم يجيب الملهوف المستغيث، والداعى المستجير،

وأنه يسمع أخفى نداء من أخفى خلق. فهذا يقتضى أن تسعف أعظم حاجة من أعظم عباده وأحب خلقه إليه.

خاصة إذا أمن على دعاء ذلك الحبيب جميع الخلق بألسنة الأقوال والأحوال.

وأى حاجة أعظم من الخلود.

خاصة إذا كانت تلك الحاجة كلمح البصر، سهلة يسيرة على الملك الكريم.

خاصة إذا تضرع ذلك الحبيب أنواع التضرعات الحزينة، متذللاً بأنواع الافتقارات، متحببا بأنواع العبادات، وقد اصطف خلفه مؤتمين به، مؤمنين على دعائه الأنبياء والأولياء والأصفياء، والطلب الجنة والبقاء، والسعادة الأبدية والرضا، قبل أن يكون هذا كان.

لابد أن يتفطن الإنسان أن هذه الدنيا ليست بذاتها ولذاتها، بل هى منزل يملأ ويفرغ، وساكنوها مسافرون يدعوهم رب كريم إلى دار السلام، وأن هذه الزينة فيها ليست للذة والنزهة فقط بدليل أنها تلذك آناً. ثم تؤلمك بفراقها أزماناً، وتذيقك لتفتح شهيتك ولكنها لا تشبعك لقصر عمرها أو لقصر عمرك، فهى للعبرة والشكر، وهى للشوق إلى الأصول الدائمة، والغايات العلوية، وأن ما فيها من الزينة صور لما ادخره الرحمن فى الجنان لأهل الإيمان، وأن هذه الفانيات اجتمعت اجتماعاً قصيراً لتؤخذ صورها وتماثيلها ومعانيها ونتائجها نماذج فينسج منها مناظر دائمة لأهل الأبد، فيختار منها صانعها ما يشاء لأهل البقاء، وقد فعل.

* * *

انظر من كلمات القدرة إلى هذه الزهرة التى تنظر إليها فى وقت قصير. ثم تفنى، تراها كالكلمة التى تزول وتترك فى الآذان صدى لآلاف مثلها، وفى العقول كذلك من معانيها. إذ هى وقت تمام وظيفتها تبقى وتودع فى حافظتنا وفى حافظة كل من رآها الشهادة، وفى بذورها صورها ومعانيها، حتى كأن بذورها وعقولنا – لمجرد حفظ زينتها وصورتها – وكأنها منازل لبقائها، وقس على هذه الزهرة ما فوقها وفوق ما فوقها من ذوى الأرواح الباقية تجد أن الإنسان ليس سدى يسرح كيف يشاء، بل تؤخذ صور أعماله وتكتب وتحفظ ليحاسب، أن تخريب الخريف لجمال الربيع إنما هو ترخيص بتمام الوظيفة، واستعداد لوفود وفود جديدة، وتحضير لمجيء مصنوعات موظفات، وتنبيه من الغفلات والسكرات، أن لصانع ها العالم عالماً آخر يسوق اليه عباده ويشوقهم إليه، وأنه قد أعد مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

* * *

انظر إلى حافظة البشر، وثمرة الشجر، ونواة الثمر، وبذر الزهر، لتفهم عظمة إحاطة اسم الله الحفيظ حتى فى الحائل الزائل، وقس على هذا ما يجرى فى العوالم الغيبية لتعلم أن لصاحب هذا العالم اهتماماً عظيماً بانضباط ما يجرى فى ملكه، وأن له نهاية الكمال فى حاكميته، وأن ربوبيته على خلقه تامة، فهذا كله يصرح أنه لابد من حساب، والا لماذا تحفظ الأعمال والأفعال والأقوال.

إن هذا كله يستلزم المحاسبة. خاصة لأعظم الأعمال، من أكرم المخلوقات وأشرفها الإنسان، لأن الإنسان كالشاهد على شئون الربوبية، وكالدلال على الوحدانية، وكالمشاهد لتسبيح الوجود.

﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ [القيامة: ٣٦].

كلا بل سيحاسب على السبد واللبد، وسيذهب إلى الحشر ليتقرر مصيره إلى الأبد، وما الحشر والقيامة بالنسبة إلى قدرة الله إلا كالربيع بعد الخريف.

إن كل ما يقع معجزات قدرته، ولكنها تشهد على قدرته مستقبلاً ومآلاً.

* * *

ليس إيجاد الحشر بانقلاباته وما فيه بأعسر عليه من إيجاد الربيع بتحولاته وجناته ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ [النساء: ٨٧]. كيف لا يصدق حديث من هذه الموجودات كلماته الصادقة، وهذه الكائنات آياته الناطقة.

* * *

لقد أخبر كل من ذهب من الظاهر إلى الحقيقة، من ذوى الأرواح النيرة، والقلوب المنورة والعقول النورانية، ودخل فى حضرة قربه سبحانه، أنه أعد للمطيعين والعاصين دار مكافأة وجزاء.

تأمل فى كيفية إحياء الأرض فى الحشر الربيعى كى ترى قريبا من ثلاث مائة ألف حشر ونشر، بكمال الانتظام فى مقدار ستة أيام، وبكمال الامتياز والتشخيص مع غاية الاختلاط تلك الأموات غير المحصورة، مشتبكة منتشرة متداخلة فى صحيفة الأرض، فمن يفعل هذا كيف يؤوده شىء، وكيف لا يخلق السموات والأرض فى ستة أيام، وكيف لا يكون حشر الإنسان كلمح البصر بالنسبة اليه. من يكتب ثلاثة مائة ألف كتاب قد انمحت حروفها فى صحيفة واحدة معاً، بلا خلط ولا غلط ولا مرج ولا مزج، كيف يعجز عن استنساخ كتاب هو ألفه أولاً ثم محاه.

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

* * *

يا من رافقني بفهمه من أول المسألة إلى هنا، لا تظنن انحصار الدلائل فيما سبق، كلا.. بل يشير القرآن الحكيم إلى مالا يعد ولا يحصى من أمارات، إن خالقنا سينقلنا من هذا المشهد المؤقت إلى مقر سلطته الدائمة كما لوح القرآن إلى مالا يحد ولا يستقصى من علامات على أنه جل جلاله سيبدل هذا المملكة السيارة القابلة للفناء بتلك المملكة المستمرة السرمدية) أ. هـ.

(٢)

وبعـــد..

ما من شيء، في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام استبعده الناس واستغربوه وأنكروه واستهزأوا به كالدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، فترى أجيال الكافرين جيلاً بعد جيل مصرة على هذا الإنكار. وقد عرض علينا القرآن نماذج من هذا الإنكار:

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩].

﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد: ٥].

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩]

﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٦٦].

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥ – ٣٨].

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨١ – ٨٣].

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ [الفرقان: ١١].

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٠].

﴿ وَقَالُوا إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الصافات: ١٥ – ١٧].

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ [المدثر: ٥٣].

لقد استبعدوا الموضوع لأن مقدماته القريبة والظاهرة لا تدل عليه كما يستبعد العامى رقما حسابيا ضخما بداياته صغيرة جداً.

قالوا: لما اخترع صاحب الشطرنج الشطرنج، عرض عليه أن يطلب مكافأة، فقال: مكافأتى أن تضع فى البيت الأول من بيوت الشطرنج حبة قمح، ثم تضع فى الثانية ضعفها، ثم فى الثالثة ضعف ما وضعت فى الثانية، وفى الرابعة ضعف ما وضعت فى الثالثة، وهكذا حتى تتم بيوت الشطرنج الأربعة والستون. وتصور ملكه، أن هذا طلب بسيط يكفى فيه رطل من القمح ولكن عندما حسبت تبين أن قمح العالم كله يومذاك لا يكفى ولا لسنوات لإتمام العملية.

وقالوا: لو أخذنا ورقة سيجارة وقسمناها ووضعنا الناتج فوق بعضه ثم قسمنا الناتج ووضعناه فوق بعضه ثم قسمنا الناتج ووضعناه فوق بعضه وكررنا العملية ٤٨ مرة فإن سمك الناتج يكون من الأرض إلى القمر، ولكنك لو سألت أميا عن الناتج لأجابك أن سمك الناتج خمسة سنتميترات أو عشرة أو خمسة عشر أو متراً أو مترين، أما أن تكون النتيجة كذلك فهو يراها قبل الدليل أشبه بالخرافات.

المسألة بالنسبة لليوم الآخر هكذا، عندما يدرسها الإنسان من مقدماتها القريبة يراها غير متوقعة، ولكن عندما ينظر إليها نظرة شاملة يراها كالنتيجة الرياضية لا تتخلف ولا يطرأ عليها الشك.

فلننظر إلى المسألة نظرة شاملة:

إن المسألة بكل بساطة هى ما يلى:

١ – ان الله عز وجل موجود وقد رأيناه دليل ذلك فى البحث الأول (الله).

٢ – والله عز وجل عليم، وقد رأينا دليل ذلك.

٣ – والله عز وجل قادر، وقد رأينا دليل ذلك.

٤ – والله عز وجل مريد، وقد رأينا دليل ذلك.
٥ – والله عز وجل عادل، وقد رأينا دليل ذلك.
٦ – والله عز وجل منتقم، وقد رأينا دليل ذلك.
٧ – والله عز وجل كريم ومنعم، وقد رأينا دليل ذلك.

فهذا الاله القادر الذى خلق السموات والأرض لا يعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية، وهذا الاله العليم بكل شيء لا تعزب عنه ذرات الإنسان إذا أراد جمعها، وأن هذا الاله العادل أعلم بكيفية الجمع الذى لا يكون معه ظلم، ومقتضى عدله أن يحاسب الإنسان، لأنه سخر له كل شيء، ومقتضى عدله أن لا يكون من أحسن كمن أساء، ومقتضى عدله أن يقتص للمظلوم من الظالم.

وهذا الاله المنتقم مقتضى انتقامه أن ينتقم ممن حاربوه وآذوا رسله ولم يطيعوه، وهذا الاله الكريم المنعم مقتضى إنعامه أن يحسن لمن أحسن وأطاع ووالى أولياء الله فى الدنيا.

وأخيراً هذا الآله الفعال لما يريد، أراد أن تكون المسألة بالنسبة للإنسان من المخلوقات الظاهرة، والجان من المخلوقات الغيبية هكذا، ولا يسئل عما شاء وعما أراد، لأن عظمته وجلال شأنه أكبر من أن تحاسب، بل هى تحاسب من شاءت.

ثم أن رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه كلهم أخبروا الإنسان أن أمامه بعثا ثانيا وحياة ثانية دائمة وجنة أو ناراً، هؤلاء الرسل الذين قامت الأدلة الكاملة على صدقهم قد أخبرونا عن الله فلم يبق أمام الإنسان إلا أن يكيف سلوكه تبعا لذلك.

وقد ناقش الله فى القرآن منكرى اليوم الآخر نقاشاً طويلاً، وأقام عليهم الحجة به، فلنعرض نماذج من نقاش القرآن لهؤلاء.

(٣)

(أ) قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ * وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [سبأ: ٣ – ٦].

ردت هذه الآيات على المنكرين بما يلى:

١ – بينت حكمة الساعة وأنها لإثابة المحسن، وتعذيب الذين حاربوا الله ورسوله وصدوا عن سبيله.

٢ – أشارت إلى أن الله الذى لا يعزب عن علمه شيء هو الذى أراد هذا.

٣ – القرآن حق، يعلم هذا كله من عنده علم، وكون القرآن حقاً وقد أخبر بها فذلك دليل على أنها آتية.

(ب) ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ﴾ [سبأ : ٧ – ٩].

١ – لفتتهم هذه الآيات إلى المخبر لهم عن الساعة وهو محمد عليه الصلاة والسلام وسألتهم: هل هو كذاب على الله أو مجنون؟ فإن لم يكن لا هذا ولا ذاك فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الضالون.

٢ – لفتتهم إلى قدرة الله فى السماء والأرض وما يمكن أن يحدث فيهما بقدرته، وبينت أن الذى يعرف قدرة الله فى خلقه يجد ذلك آية على أن الله قادر على إقامة الساعة.

(جـ) ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ** ﴾ [الحج: ٥ – ٧].

عالجت الآيات شك الشاكين بما يلى:

١ – لفتتهم إلى نشأتهم كيف أنهم كانوا تراباً ثم صار التراب غذاء ومن الغذاء تكون المنى ثم كان اللقاح ثم بدأ تطور الجنين حتى ولد طفلاً ثم كبر ثم عجز، فالله الذى نقل الإنسان من طور إلى طور حتى أوصله إلى ما وصل إليه، هل يعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية دفعة واحدة.

٢ - لفتتهم الآية إلى النبات الذى يجف حتى يموت كيف يحييه الله عز وجل مرة ثانية، فالله الذى فعل هذا أيعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية؟

إن الله الذى فعل هذا وهذا قادرعلى أن يبعث الناس جميعًا مرة أخرى فلا مجال للشك إذن بقيام الساعة.

(د) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

١ - لفتتت الآيات الإنسان إلى موقفه الشائن حيث يقف خصماً لله الذى خلقه من هذه النطفة الحقيرة.

٢ - ومن خصومة الإنسان لله استبعاده أن يخلقه الله مرة ثانية، مع أنه لو تذكر كيف خلقه الله لأول مرة لم يستبعد أن يخلقه مرة ثانية.

٣ - الله الذى خلق كل شىء للإنسان لا ينبغى للإنسان أن يقف منه هذا الموقف.

٤ - الله الذى خلق السموات والأرض، والذى يخلق بمجرد الإرادة والأمر، أليس قادرا على أن يخلق مثل الإنسان، والذى يقدر على هذا كيف يستبعد منه إعادة الإنسان؟

(هـ) ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الرعد: ٥].

أشارت الآية إلى أن الذين ينكرون البعث إنما يكفرون فى الحقيقة بالله، إذ لو كانوا يعرفون الله حق المعرفة لما أنكروا الساعة والقيامة، وإنه لعجب أن ينكر الإنسان البعث وهو يعرف الله ويعرف قدرته.

(و) ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

الذى يعرف شيئًا عن سعة الأجرام السماوية، وعن هذا الفضاء الكبير، يعرف

أن خلق الناس بالنسبة إلى ذلك أمر بسيط . فإنكار الإنسان لليوم الآخر شيء عجيب مع قيام الحجة، إن الله هو خالق السموات والأرض.

(ز) ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** ﴾ [المؤمنون : ١١٥، ١١٦].

إن الإنسان عندما يتصور أنه غير راجع إلى الله، وأنه غير محاسب ، وأنه يعمل ما يريد فعله في هذه الحياة ثم يمضي إلى غير رجعة، إن هذا الإنسان عندما يتصور هذا التصور، إنما يحكم على الأشياء كلها وعلى ذاته خاصة بأنها مخلوقة للعبث واللهو . لا لحكمة، وهو بذلك يتهم الذات الالهية أو ينكرها، والحقيقة خلاف هذا وهذا، والله عز وجل منزه عن هذا وهذا، بل خلق الإنسان لحكمة، وسيحاسبه على أفعاله كلها.

(ح) ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ** ﴾ [القيامة : ٣٦ - ٤٠].

إن الإنسان الذى أعطى الوجود كله ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [لقمان : ٢٠] لا يعامل كما يعامل التراب وأمثاله، فهو سيطالب بقدر ما أعطى ويحاسب، وهذا منطق الوجود كله، على قدر ما تعطى تطالب، فلن يترك الإنسان وقد أعطى ما أعطى مهملاً، بل سيحاسب على كل صغيرة وكبيرة من قبل ربه عز وجل، والله الذى خلقه من نطفة ثم طوره قادر على أن يعيده مرة ثانية ليحاسبه.

(ط) ﴿ **بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** ﴾ [سورة ق : ٢ - ٤].

ردت الآية على عجبهم من إعادتهم بعد أن يكونوا تراباً بعلم الله الذى يعلم كل شيء، فيعلم ذراتهم إلى أى شيء تؤول، وما دامت المسألة كذلك فكيف يكون عجب، بل العجب من تصورهم أن الله ذا الجلال والكمال لا يقدر على إعادتهم.

(ى) ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي**

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٤٩ – ٥١].

استبعدوا أن إذا صاروا ترابا أن يبعثوا، فقال لهم كونوا بعد موتكم أكثر من تراب: حجارة أو حديداً أو أى شىء تتصورونه كبيراً: هؤاء أو غازات أو نباتاً أو فى أجسام أخرى أو .... فالذى خلقكم أول مرة وفيكم ذرات الحديد والذهب والفحم هو الذى سيعيدكم مرة أخرى.

(ك) ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾** [النحل: ٣٨ – ٤٠].

إن الله وعد – وإذا وعد لا يخلف الميعاد – أن يقيم الساعة، ويبعث الأموات، والحكمة فى ذلك كى يبين للناس الحق فيما اختلفوا فيه، وليبين للناس أن الرسل كانوا صادقين، وأن الذين كذبوهم هم الكاذبون، وليس ذلك يصعب على الله الذى يقول للشىء كن فيكون. هذه هى الحقيقة ولو جهلها أكثر الناس.

* * *

هذه نماذج من نقاش القرآن للكافرين فى قضية البعث، والقرآن ملىء بمثل هذا، فقضية اليوم الآخر تعدل قضية الإيمان بالله فى ميزان القرآن، لذلك كثيراً ما تقترنان، وما وصف الرسل بأنهم مبشرون ومنذرون إلا من أجلها، هذه مهمتهم الأساسية أن يبشروا المؤمنون بجنة الله، وينذروا المكذبين بنار الله. المؤمنون عرفوا الرسل وصدقوهم وقالوا:

﴿ **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾** [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].

والكافرون حاربوا الرسل وآذوهم وعذبوهم وصدوا عن صراط الله عز وجل وقالوا:

﴿ **مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾** [الأنعام: ٩١].

فاستحق كل من الطرفين جزاء عمله:

﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ**

عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار : ١٣ - ١٩] .

هذا هو المؤيد الأعظم لرسل الله، وهذا هو المؤيد الأعظم للإسلام، إن مشيت فى طريق الإسلام فلك الجنة، وإن مشيت فى طريق ضلال فلك النار، وقبل الجنة والنار نعيم وأهوال أخبر عن ذلك كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأخبر عن ذلك كل رسول لله، وفصل . هذا كله محمد رسول الله وخاتم النبيين .

(٤)

فالله عز وجل جعل الحياة بالنسبة للانس والجن حياتين : الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وجعل الحياة الآخرة هى المقر، وجعل الحياة الدنيا هى الممر، قال ابن مسعود : (مالى وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) .

وفى الأثر : (كن فى الدنيا كغريب، أو عابر سبيل) .

فالدنيا ليست دار قرار للإنسان، وكل ما فيها تافه وحقير إذا قيس بالآخرة، كما أنها فانية والآخرة باقية، ومجنون من يفضل فانيا تافها على باقٍ عظيم، ولكن الإنسان فى هذا الموضوع كالطفل الذى يفضل الغريب المألوف على أبيه وأمه القريبين الغائبين، يفضل الأدنى على الأعلى، والعاجلة على الآجلة، لأن العاجلة الأدنى هو منها على تماس، أما الآجلة الأعلى فهو منها على موعد، ولو عقل لعرف أن موعدا من الله وعلى لسان رسوله أوثق إلى مالا يتناهى مما هو فى اليد، لأن ما فى اليد من الله ونافد، وما عند الله حاصل وباق .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٦ - ١٩] .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٠ - ٢٥] .

ولذلك أكثر الله عز وجل وأكثر رسوله من ضرب الأمثال على حقارة الدنيا وفنائها، وجلال الآخرة وبقائها، ليعقل من عقل، ويبقى سادرا فى جنونه من جن، وأى جنون أكبر من الغفلة عن نعيم الآخرة وشقائها .

قال عليه الصلاة والسلام : (ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه - وأشار بالسبابة - فى اليم فلينظر بما يرجع) مسلم والترمذى .

ومر عليه الصلاة والسلام بالسوق داخلاً من بعض العوالى والناس كنفتيه[١]، فمر بجدى ميت أسك فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم)؟ قالوا: ما نحب أنه لنا بلا شيء وما نصنع به؟ أنه لو كان حياً كان عيباً به أنه أسك. قال: (فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم) مسلم وأبو داوود.

وقال عليه الصلاة والسلام: (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم ومتعلم) الترمذي.

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [يونس: ٢٣، ٢٤].

وقال: ﴿ **وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ** ﴾ [الرعد: ٢٦] أى متعة لا تدوم.

وقال: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا** ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال: ﴿ **وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحيوان مصدر حيي، أى لهي دار الحياة الحقيقية، لامتناع طريان الموت فيها.

وقال: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ [الحديد: ٢٠].

ولكن هذه الحقيقة لا يستفيق عليها فى الدنيا الا المؤمنون، لذلك تصبح الدنيا بالنسبة لهم سجنا ينتظرون الخروج منه، أما الكافرون فيعتبرونها جنة يتمنون البقاء فيها:

---

(١) أى يسيرون عن يمينه وشماله.

يقول عليه السلام: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) مسلم والترمذى.
ويستفيق على هذه الحقيقة فى الآخرة الكافرون:

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

ولهذا كله لا يعتبر إنسان فى ميزان الله عالما ولو عرف هذا الكون كله إلا إذا عرف الآخرة وآمن بها وعرف أنها خير من الدنيا:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٦ - ٩]. ومن رأى الأهرام وآثار بعلبك وتدمر رأى آثار عمارة الماضين للأرض.

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

هؤلاء الذين لا يعرفون الآخرة، ولا يريدونها وقد قصروا همتهم على الدنيا، سينالهم من عذاب الآخرة النصيب الأولى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا

مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

والفارق بين مريد الدنيا، ومريد الآخرة كبير جداً، يظهر فى الاعتقاد، وفى يقظة القلب، وفى السلوك. فطالب الآخرة يفضلها على الدنيا اعتقاداً وشعوراً، ويقدم أعمالها على أعمال الدنيا، ويجعل أعمال الدنيا وسيلة تقربه من رضوان الله فى الدنيا والآخرة، فإذا تعارضت صلاته مع عمله قدم صلاته، وإذا عمل عملاً بنية وجه الله، فهو وأعماله على صراط الله الموصل إلى الجنة.

(رحم الله عبدالله بن رواحة كان أينما أدركته الصلاة أناخ).

(٥)

إذن هناك دنيا وأخرى، والحد الفاصل بينهما قيام الساعة، فبقيام الساعة تنتهى الدنيا وتبدأ الآخرة، هذه الساعة التى هى الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة متى تكون؟ إن الله عز وجل قد عمى خبرها فلم يخبر به أحداً.

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦].

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فهى إذن لا تأتى إلا بغتة، غير أن لها علامات تدل على قربها، وعندما نقول قربها نعنى قربها النسبى، أى بالنسبة لما هو عند الله، أو بالنسبة لعمر الكون. قال تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ [القمر: ١]. وقال: ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ** ﴾ [محمد: ١٨].

ومن أشراطها بعثة الرسول ﷺ، روى البخارى عن رسول الله ﷺ: (بعثت أنا والساعة كهاتين) يعنى أصبعيه.

وعلامات الساعة كثيرة وكل علامة من علاماتها شرط لوجودها، فما لم تظهر العلامات كلها لا تقوم الساعة وقد أشار الرسول ﷺ إلى كثير من هذه العلامات وأشار القرآن إلى بعضها، وبعض ما أشار إليه الرسول ﷺ وقع كما رأينا فى بحث

النبوءات من الكتاب الثانى - الرسول - وبعضها لم يقع، والذى لم يقع حتى الآن كثير مما يدل على أن بيننا وبينها بعدا نسبيا أى بعد بالنسبة للزمن من حسابنا، أما بالنسبة لعمر الكون أو للذات الالهية فذلك قريب ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]. وبعض الأشراط وهى التى تسمى العلامات الكبرى تكون قبل قيام الساعة بقليل وهى مقدمات ضخمة بين يدى ذلك الحدث الضخم.

ونحن سنستعرض بعضا من هذه الأشراط مبتدئين بالإشراط التى أشار إليها القرآن:

(أ، ب) روى مسلم وأبو داوود عن رسول الله ﷺ: (أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبًا).

قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقد فسر الرسول ﷺ آخر هذه الآية فى الحديث الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة عن رسول ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان من المسلمين يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج - وهو القتل - وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذى عرض عليه لا أرب لى فيه، وحتى يتطاول الناس بالبنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتنى مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ فلتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها).

وفى بعض روايات هذا الحديث يذكر أنه لا تقوم الساعة (... وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً) وواضح أن هذا العرض الطويل لما يكون قبل الساعة قسم منه قد رأيناه ومضى، وقسم هو الآن فى بداياته، وقسم لم يأت دوره بعد.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ

النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : ٨٢] ولم يرد فى نص صريح وصف لهذه الدابة إلا ما ورد فى حديث تميم الدارى فى وصف دابة هى الجساسة - دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره - يقول العلماء : أنها هى نفس الدابة . وإنما الوارد عن رسول الله قضية خروجها :

روى أحمد باسناد رجاله رجال الصحيح ما عدا واحداً هو ثقة، عن رسول الله ﷺ .

(تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم حتى يشترى الرجل البعير فيقول : ممن اشتريته؟ فيقول : اشتريته من أحد المخطمين) .

وللطبرانى فى الأوسط باسناد رجاله ثقات عن رسول الله ﷺ :

(تخرج الدابة من أعظم المساجد فبينما هم كذلك إذ تصدعت) وأعظم المساجد المسجد الحرام .

(ج، د، هـ) نزول المسيح، وخروج الدجال، وفتح يأجوج ومأجوج .

قال تعالى عن المسيح : ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ** ﴾ [النساء : ١٥٩] .

وقال : ﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا** ﴾ [الزخرف : ٦١] .

وقال عن يأجوج ومأجوج : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ** ﴾ [الأنبياء : ٩٦، ٩٧] .

وأما الدجال فقد ورد فيه أكثر من سبعين حديثاً، فحديثه متواتر من أنكره لا شك كفر، ومرتبط موضوعه بنزول المسيح عليه السلام، إذ أن المسيح هو الذى يقتله .

والمسيح والدجال ويأجوج ومأجوج فى زمن واحد تقريباً وليس بين الساعة وهذه الأحداث إلا سنوات معدودات .

ولعل أغمض موضوع هنا هو موضوع يأجوج ومأجوج لكثرة الأحاديث الموضوعة، والأوهام الكثيرة التى أحاطت بهم، والحق فى ذلك أنهما أمتان من بنى آدم كثير عددهما، موجودتان على الأرض، لا نستطيع تعيينهما، ولا تعيين محلهما، اكتساحهم للمنطقة العربية، ودخولهم إلى فلسطين من علامات الساعة . أما ما يذكر من أنهم يحاولون يوميا فتح سدهم ولا يقدرون . فالحديث غريب وفى رفع متنه نكارة كما ذكر المحدثون .

أما كون الآية ذكرت فتح سدهم وقرب الساعة فقد رأينا أن الساعة اقتربت منذ

زمن رسول الله ﷺ وذهب بعضهم إلى أن سدهم المقصود به سد الصين العظيم(١).
وبعضهم ذهب إلى غير ذلك وبعضهم ذهب إلى أنهما التتار والمغول، وبعضهم إلى أنه الجنس الآرى كله بما فى ذلك الشعوب الأوروبية الحالية، وليس فى ذلك كله ما يصلح للقطع غير أن هناك حديثين صحيحين يعطياننا بعض الفهم للأمر: روى الشيخان عن زينب بنت جحش أن النبى ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: (لا إله إلا الله.. ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) - وحلق باصبعيه الابهام والتى تليها - فقلت: يا رسول الله.. أنهلك وفينا الصاحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث).

وأول شر أصيب به العرب كان على يد التتار والمغول، فكان ما أصيب به العرب يومذاك هو بداية الدفعة الأولى لخروج يأجوج ومأجوج هذا إذا صح فهمنا للحديث.

وفى الحديث الحسن الصحيح الآخر:

(أن النبى ﷺ لما نزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ [الحج: ١].. الآية قال: أتدرون أى يوم ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: ذلك يوم ينادى الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول: يا آدم.. ابعث بعث النار فيقول: أى رب.. وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. فيئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة، فلما رأى الذى بأصحابه قال: اعلموا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده انكم لمع خليقتين ما كانتا فى شىء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج ومن مات من بنى آدم وبنى ابليس. فسرى عن القوم بعض الذى يجدون قال: اعلموا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كشامة فى جنب البعير - أو كالرقمة فى ذراع الدابة.

من هذا الحديث نفهم أن يأجوج ومأجوج يشكلان نسبة كبيرة من سكان الأرض، مما دعا البعض إلى أن يتصور أنهم من العرق الأصفر من صينيين وغيرهم، أو العرق الأصفر والعرق الآرى كله. والأمر بعد ذلك وقبله إلى الله هو أعلم بهم، كل ما فى الأمر أن من علامات الساعة أن يأجوج ومأجوج ستكتسحان أرضنا حتى فلسطين فى زمن المسيح ثم يقضى الله عليهم.

أما الدجال فهو أعظم فتنة تظهر على الأرض منذ خلق الله الخليقة حتى قيام الساعة، إذ أنه رجل يدعى الألوهية، ويظهر الله على يده خوارق عادات تكون بمثابة

---

(١) يروى بعض من زار الصين من معاصرينا أن الناس هناك حدثوهم أنه يوجد عندهم قبيلتان تسميان: ياجوج ومأجوج وهما موجودتان الآن.

أشعار للجاهلية بأن لهذا قدرة مطلقة، فما لم يعتصم الإنسان بالوحى الصادق فى شأنه، والعقل البصير الذى يعرف به جلال الله، وأنه لا يمكن أن يكون الله هو هذا الإنسان الأعور الناقص فإن الإنسان يضل.

وهذه بعض نصوص وردت فى أمر هذه العلامات الثلاث للساعة:

روى مسلم عن رسول الله (ما من خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال).

وفى رواية (أمر أكبر من الدجال).

وروى الشيخان وأبو داوود والترمذى عن رسول الله ﷺ: (ان الله ليس بأعور ألا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافئة) وفى رواية (تعلمون أنه ليس يرى أحد منكم ربه حتى يموت وأنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه من كره عمله).

وللترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى بكر عن رسول الله ﷺ:

(الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة) حسن غريب.

ولمسلم عن رسول الله ﷺ (يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة).

ولمسلم والترمذى: (ليفر الناس من الدجال فى الجبال. قلت: يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال: هم قليل). وللشيخين عن أبى سعيد (حدثنا النبى ﷺ عن الدجال فكان فيما حدثنا به أن قال: يأتى الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينتهى إلى بعض السباخ التى بالمدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس – أو من خير الناس – فيقول: أشهد أنك الدجال الذى حدثنا عنه رسول الله ﷺ حديثه فيقول الدجال: أرأيتم أن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون فى الأمر؟ فيقولون: لا. فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحييه: والله ما كنت قط أشد بصيرة منى اليوم. فيقول الدجال: اقتله فلا يسلط عليه). وفى رواية بنحوه وفيه قول الرجل: (هذا الدجال الذى ذكر رسول الله ﷺ فيأمر به فيشج فيقول خذوه وأشبحوه فيوسع ظهره وبطنه ضرباً فيقول: أما تؤمن بى؟ فيقول: أنت المسيح الكذاب فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه ثم يمشى الدجال بين قطعتيه ثم يقول له: قم. فيستوى قائماً ثم يقول له: أتؤمن بى؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة. ثم يقول: يا أيها الناس: إنه لا يفعل بعد بأحد من الناس. فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته

إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار وإنما ألقى فى الجنة فقال ﷺ : هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين) وللشيخين وأبى داوود عن حذيفة عن رسول الله ﷺ :

(أنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان أحدهما رأى العين ماء أبيض والآخر رأى العين نار تأجج فأما أدرك أحد فليأت النهر الذى يراه نارا وليغمض ثم ليطأطىء رأسه فيشرب منه فانه ماء بارد وأن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغيركاتب) .

وللشيخين وأبى داوود والترمذى عن رسول الله ﷺ :

(ما من نبى إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب ألا انه أعور وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه ك ف ر) .

ولمسلم وأبى داوود والترمذى عن النواس بن سمعان :

(ذكر النبى ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فى طائفة النخل . فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم؟ قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفنى عليكم أن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم . إنه شاب قطط عينه طافية كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالاً . يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله : فما لبثه فى الأرض؟ قال أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله : فذاك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال لا . اقدروا له قدره . قلنا يا رسول الله : وما أسراعه فى الأرض؟ قال : كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت وراً وأشبعه ضروعاً وأمده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النخل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان اللؤلؤ . فلا يحل لكافر يجد ريح

نفسه إلا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه. فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتى عيسى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى:

(إنى قد أخرجت عباداً لى لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور)، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويحضر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله جل وعلا. فيرسل عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة.

ثم يهبط عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله تعالى. فيرسل طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة. ثم يقال للأرض أنبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك الله فى الرسل حتى أن اللقحة من الأبل لتكفى الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس. فبينما هو كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن ومسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة).

وفى رواية بعد قوله: «لقد كان بهذه مرة ماء»: (ثم يسيرون حتى ينتهوا الى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس فيقولون لقد قتلنا من فى الأرض فلنقتل من فى السماء فيرمون نشابهم إلى السماء فيرد الله عليه نشابهم مخضوبة دماء).

* * *

هذه خمسة علامات من أكبر علامات الساعة وأشراطها، وهناك مئات العلامات الأخرى وردت فى السنة، رأينا نماذج مما وقع منها، أو يقع الآن فى فصل النبوءات من كتاب **(الرسول)** وبعضها لم يقع، وبعض الناس تغلب عليه أغلاط فى فهم بعض هذه العلامات أو فى تقدير وقتها.

إذ أن منها ما يكون قرب الساعة بقليل جداً قبل المسيح بسنوات أو معه، ومنها ما يكون قبل ذلك بكثير جداً فيغلطون بالجمع بينهما، ومنها ما لا تدل عليه المقدمات الحاضرة فيغلطون فى تأويلها، ومنها ما جعلهم عصرنا الحاضر ومخترعاته يفهمونها فهما عادياً وهى خوارق، ومنها ما هو دليل على الخيرية يظنونه مذموماً.

فمثلاً يظن الناس أن الدين إلى انحسار حتى خروج المهدى، مع أن المهدى قبل عيسى بقليل، وقبل ذلك يعم الإسلام العالم، وتفتح روما. والقسطنطينية اليوم مسلمة وكانت كافرة ففتحت، وقد أخبر الرسول ﷺ بالفتح الأول ولكن يبدو أن القسطنطينية سترجع كافرة مرة ثانية، وتفتح من جديد، وفتحها الثانى يكون قبيل المسيح بقليل، والناس لا يفرقون بين فتحها الأول والثانى. والظاهر كما أن مدنيات قديمة كثيرة قد اندرست على مر العصور، فان مدنيتنا الحاضرة لن تستمر إذ أن النصوص الكثيرة تفيد أن الناس قبل قيام الساعة لن يكونوا على شيء من العلم، وهذا يؤكد أن بيننا وبين القيامة شيئًا من الفترة الزمنية الله أعلم به ولكن أشراطاً كثيرة وردت فى السنة الثابتة لم تقع ويبدو أن وقوعها يحتاج إلى زمان طويل والمسألة بعد ذلك كله هكذا:

ما ورد من علامات الساعة إن كان وقع فهو معجزة وقد رأينا نماذجه فى بحث النبوءات.

وما ورد من علاماتها مما لم يقع فالإيمان به واجب والله أعلم بزمان وظروف وكيفية وقوعه.

ولن تقوم الساعة حتى تستنفد علاماتها وأشراطها التى وردت فى الكتاب والسنة وشيء ننبه إليه هو ألا يدفعنا واقع عصرنا إلى تأويل شيء من علامات الساعة التى لم تقع لأن واقع عصرنا وما فيه قد ينتهى بحرب ذرية تعود الإنسانية فيها إلى بدايتها الأولى ولا يبقى فيها إلا الجاهلون.

(٦)

رأينا أن هناك دنيا وأخرى وأن الحد الفاصل بينهما هو قيام الساعة ورأينا شيئًا من أشراط الساعة والآن نحب أن نذكر هنا ما هو وضع الإنسان قبل الساعة وبعد الموت؟

نريد أولاً وقبل الجواب عن السؤال الآنف أن نشير إلى نواح:

(أ) العوالم التى يمر بها الإنسان هى:

١ - عالم البطن.

٢ - عالم الحياة الدنيا.

٣ - عالم البرزخ وهو عالم ما بعد الموت.

٤ - عالم اليوم الآخر وهو عالم ما بعد الساعة.

وكل عالم لاحق أوسع من العالم السابق ويختلف عنه نوع اختلاف، وتختلف كذلك القوانين التى تنطبق عليه. فالإنسان فى بطن أمه لا يتنفس ولا يأكل من فيه

ويكون في الغالب رأسه إلى الأسفل على عكس ما يكون في الحياة الدينا، والحياة الدنيا أوسع من البطن للإنسان، وعالم البرزخ أوسع من عالم الدنيا لأنه جزء من الآخرة، وعالم الآخرة أوسع العوالم على اعتبار ان الإنسان فيه يكشف له عالم الغيب ويعيش فيه.

وعالم الحياة الدنيا يرى فيه الإنسان صورة مصغرة عن عالم البرزخ في النوم، وفي عالم البرزخ يستشرف الإنسان على الآخرة، فكل عالم يعيش فيه الإنسان يكون مقدمة لغيره، ويرى الإنسان فيه صورة مصغرة عنه.

وبحثنا هنا له علاقة بعالم البرزخ، وهو عالم ما بعد الحياة الدنيا وما قبل الآخرة: إننا نأخذ صورة مصغرة عن هذا العالم في الحياة الدنيا أثناء نومنا. ففي النوم نرى أنفسنا نتعب أو ننعم أو نجوع أو نعرى أو نضرب أو نضرب[1] وقد يظهر آثار ذلك على الجسم كما تواترت بذلك حوادث. هذا الذي نشاهده في النوم شبيه بما نراه أمامنا بعد الموت ولكن بصورة أخرى أكثر وضوحًا، وفي حالة يكون ارتباط الروح بالجسد فيها مختلفًا وأكثر ضعفًا، ولكن ليس مثل عالم الرؤيا يوضح لنا عالم البرزخ، ولذلك وجد أكثر من نص عبر عن النوم بلفظ الموت، أو شبه به من أجل ذلك قوله عليه السلام (النوم أخو الموت).

(ب) مر معنا في بحث (الرسول ﷺ) معان كلها تشير إلى عالم الروح كظاهرة الأحلام والتنويم المغناطيسي والتلباثي وما إلى ذلك، وأكدنا هناك إلى أن المصدر الوحيد الذي يجوز أن نتلقى منه ما له علاقة بعالم الغيب خاصة هو رسول الله ﷺ إذ هو المصدر الوحيد الثقة المعصوم عن الخطأ في هذا الموضوع وغيره ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾ [النجم: ١٧ - ١٨] ﴿**أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ**﴾ [النجم: ١٢].

﴿**وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ**﴾[2] [التكوير: ٢٤].

والذي نريد أن نذكره هنا هو أنه لما كانت عوالم الغيب جزءاً من العقيدة فلابد أثناء الحديث عنها من الاحتياط الكثير، فلا نورد نصًا إلا إذا صحت نسبته لرسول الله ﷺ صحة كاملة.

(جـ) كنا ذكرنا سابقًا أنه لا مانع من أن يجتمع في القضية الواحدة سببان: أحدهما حسي، والآخر غيبي، وإثبات أحدهما لا يعني نفي الآخر، والجميع بقدرة الله

---

(١) نضرب أو نضرب: الأولى بفتح النون وكسر الراء، والثانية بضم النون وفتح الراء.
(٢) أي بمتهم.

عز وجل، وإثبات هذا كذلك لا يعنى نفس السببين، وأكثر ما يتجلى هذا فى الموت. فقد يكون للموت سبب حسى هو المرض، وله حتما سبب غيبى هو سحب الروح من الإنسان بواسطة الملك، وهذا وهذا بقدرة الله.

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١] ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١] ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]

(د) المسألة بالنسبة لعالم الغيب تختلف منها عن عالم الشهادة. فالأشياء التى تتصور غريبة بالنسبة لنا فى عالم الشهادة نتيجة للقوانين التى تحكمنا تصبح عادية فى عالم الغيب، فإذا تصورنا طبيباً لا يستوعب الا مريضا، فلا يخطرن بالبال أن ملكاً لا يستوعب إلا إنسانا واحداً، هذا جهل بعالم الغيب لا يقول به إلا إنسان ما عرف عالم الغيب.

إن قدرة الله مطلقة، وإذا سلط مخلوقاً على شيء استوعبه، وعالم الغيب عالم عجيب لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا بواسطة الوحى الصادق، وليس لنا معه إلا الإيمان والتصديق، دون القياس والتجريب، لأن المسألة خارجة عن قوانين عالمنا الحسى.

* * *

بعد هذه المقدمة ننقل بعض النصوص الواردة عما له علاقة بالإنسان من الموت إلى الساعة:

(أ) روى مسلم وأصحاب السنن عن أم سلمة:

(دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر) . .

(ب) روى النسائى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ:

(إذا احتضر المؤمن أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون أخرجى راضية مرضيا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان فيخرج كأطيب ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به أبواب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح التى جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه فيقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان ماذا فعل فلان؟ فيقولون دعوه فأنه كان فى غم الدنيا فيقول قد مات أما أتاكم؟ قالوا ذهب به إلى أمه الهاوية. وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجى ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون ما أنتن هذه الريح حتى يأتوا به أرواح الكفار) .

(جـ) (روت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . قلت : يا نبى الله . . كراهية الموت؟ قال : ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه) للشيخين والترمذى والنسائى .

(وفى رواية : بعد « كره الله لقاءه) : والموت قبل لقاء الله) .

(وفى أخرى : قالت إذا شخص البصر وحشرج الصدر واقشعر الجلد وتشنجت الأصابع فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) .

(د) (روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ : إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فان كانت صالحة قالت : قدمونى ، وان كانت غير ذلك قالت : يا ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شىء إلا الثقلين — أو قال الإنسان — ولو سمع الإنسان لصعق) للبخارى ومسلم .

(هـ) (وروى أنس عن رسول الله ﷺ : ان العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ليسمع خفق — قرع — نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً ، وأما الكافر والمنافق فيقول لا أدرى . . كنت أقول ما يقول الناس . فيقال له : لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين) . للشيخين وأبى داوود والنسائى .

(و) (وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول : هو عبدالله ورسوله أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ثم ينور له فيه ثم يقال له نم فيقول أرجع إلى أهلى فأخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذى لا يوقظه الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثله لا أدرى . فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك) .

وزاد فى الأوسط : (إن المؤمن تكون الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن شماله وفعل الخير والمعروف عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ليس من قبلى مدخل وكذا من كل جهة يقول الذى فيه ليس من قبلى مدخل) .

(ز) روى هانىء مولى عثمان قال : كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته قيل له تذكر الجنة والنار ولا تبكى وتذكر القبر فتبكى فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (القبر أول منزل من منازل الآخرة فان نجى منه فما بعده أيسر منه وان لم ينج منه فما بعده أشد منه قال وسمعته ﷺ يقول : ما رأيت منظراً قط الا القبر أفظع منه) .

وزاد رزين : قال هانىء وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة   والا فانـــى لا أخـــالك ناجيا

(ح) روى ابن عباس : (مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال : إنهما ليعذبان وما يعبان فى كبير ثم قال : بلى أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين فغرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا) . للستة إلا مالكا .

(ط) وعن عائشة عن رسول الله ﷺ : (إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا منها سعد بن معاذ) . لأحمد .

(ى) عن ابن عباس : (أن النبى ﷺ قال يوم دفن سعد بن معاذ وهو قاعد على قبره : لو نجا أحد من فتنة القبر - أو مسألة القبر - لنجا سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة ثم أرخى عنه) للطبرانى فى الكبير والأوسط .

(ك) قال الله تعالى : ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر : ٤٦] .

(ل) وقال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

(م) عن سلمان عن رسول الله ﷺ : (رباط يوم فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً وقى من فتنة القبر ونمى له عمله إلى يوم القيامة) . لمسلم والنسائي والترمذى بلفظه .

(ن) قال مسروق : سألنا عبد الله عن هذه الآية ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] فقال : إنا سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : (أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع اليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئًا؟ قالوا : أى شيء نشتهى ونحن نسرح فى الجنة حيث شئنا . ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما

رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسئلوا قالوا: يا رب.. نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا). لمسلم والترمذى وزاد: (وتقرىء نبينا السلام وتخبره أن قد رضينا ورضى عنا).

(س) عن أنس عن رسول الله ﷺ: (ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة). للشيخين والترمذى والنسائى.

(ع) روى عوف بن مالك: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظنا من دعائه: (اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار). وقال عوف: حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت. للترمذى والنسائى ومسلم بلفظه.

(ف) روى أنس عن رسول الله ﷺ: (اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) للستة إلا مالكا.

(ص) روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ: (اللهم إنى عوذ بك من الكسل والهرم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ومن فتنة النار وعذاب النار ومن شر فتنة الغنى ومن شر فتنة القبر وأعوذ بك من شر فتنة المسيح الدجال. اللهم اغسل عنى خطاياى بماء الثلج والبرد ونق قلبى كما نقيت الثوب الأبيض وباعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب) للستة الا مالكاً.

والمسألة بعد هذا كله مسألة إيمان وعمل، وليست مسألة تحتاج الى فلسفة أو أسئلة. من آمن بالله ورسوله – ولماذا لا يؤمن – عرف أن الله لا يعجزه شيء، وتلقى الأمر كما هو ولم يحتج إلى سؤال كثير فى شئون هى لغير عالمنا، وما نرى المسلمين بحثوا فى هذه الشئون وتوسعوا فيها وأكثروا من تفريعات مسائلها ومناقشة أمورها إلا يوم ضعف فى نفوسهم اليقين، وقوى الشك، وعمت الشبه، وليس علاج ذلك فى هذا، وإنما علاجه بمعرفة الله ومعرفة رسوله ﷺ فمن عرف لزم الباب. ولم يحتج إلى جواب على إشكال لأنه لا إشكال وقتذاك إلا فى كلمة لم يعرف معناها أو نص استعصى على فهمه إدراك مراد الشارع فيه.

إن مثلنا ومثل الصحابة فى هذه الأمور كمثل أمتين هددتا بخطر، فأمة عرفت الخطر وسعت لتلافيه، وأمة شكت وفتشت وتساءلت وناقش أفرادها بعضهم بعضاً حتى داهمهم الأمر وهم على غير استعداد فدمروا.

فيا أيها الناس.. ما كان من أمر الغيب وقد أخبرنا عنه خبراً صحيحاً عن رسول الله ﷺ فلنفهمه ونؤمن به ولنسلم الأمر فيه، ذلك مقتضى الإيمان وذلك الطريق الأقوم.

* * *

على أن الباحث العالم المنصف يرى في كل شيء ما يزيد اليقين:

لئن كانت بعض قضايا البرزخ يسمعها الحيوان ولا يسمعها الإنسان فقد ثبت علميا أن الإنسان لا يسمع الصوت إلا إذا كان ضمن ذبذبة معينة، فإذا زاد على ذلك أو نقص لم يعد يسمع، بينما آذان الحيوانات لا تنطبق عليها نفس القاعدة كما تنطبق على الإنسان، ومن شاهد الخيل عند قربها من قبر يلاحظ كيفية إصغائها.

ومن تتبع أحوال الموتى عند الموت وراقب وجوههم وأوضاعهم وأحوالهم رأى الفارق الكبير بين أوضاع المسلمين الصالحين وأوضاع الآخرين، يظهر هذا على وجوههم قبل الموت وبعده.

ومن درس أحوال العباد والزهاد والصالحين والذاكرين من المسلمين عرف أن أحوال الكثير منهم كيف أنهم يشاهدون بعض الأمور البرزخية، وقد ورد في حديث الرسول ﷺ: (لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع) أي من عذاب القبر لأن الأثر ورد فيه.

ومن تتبع قصص من لم تأكل الأرض جثته من المسلمين ولو بعد عشرات من السنين أو مئات من يوم دفنه لرأى العجب قديما وحديثا، ولعل من أعجب ذلك وأبدهه وما يستطيع كل إنسان أن يتحقق منه ميت في حي الأكراد في دمشق ترى رجله خارجة من القبر لم تتغير ولم تتبدل ويستطيع أي إنسان أن يراها مع أنه مضى على دفنه مئات السنين، وما من بلد إسلامي إلا ويروى لك أهله حوادث من هذا النوع شاهدوها أو سمعوا من شاهدها. وفي حوادث السيرة من ذلك الكثير، وكم قبر حفر ففاح من أرضه عبير عجيب وهذه قضايا لا نقولها رجما بالغيب ولكن نستطيع أن نأتي عليها بأوثق الشهود، ومن تتبع حوادث توجيهات الموتى الصالحين للأحياء أو إنذارهم في الرؤى والمنامات ووقوع كثير من النذر كما أنذروا يرى من ذلك الكثير العجيب.

نواح كثيرة تزيد الإيمان ولكن من لم يكتف بقول رسول الله ﷺ في أي شيء فهو بحاجة إلى تجديد إيمانه برسول الله وبالله وليكثر من قراءة القرآن فإنه لا شك مريض والقرآن شفاء لما في الصدور.

(٧)

بعد هذا نصل إلى الحديث عن اليوم الآخر. والحديث عن ذلك ينقسم إلى

قسمين: الحديث عن الجنة والنار ودخول أهلهما إليهما وما يكون قبل ذلك. وفى تسلسل الأحداث من بدء الساعة إلى دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، بعض خلاف، والسر فى هذا الخلاف أن كلمات النصوص أحياناً تحتمل أكثر من معنى، والقضية غيبية لا تعرف بغير الوحى أو المعاناة. وفى القضايا الغيبية متى فقد النص وجد الخلاف إذا حدث الخوض. ولذلك فنحن فى هذه الفقرة سنقتصر على ذكر النصوص وعلى شرح بعض المفردات وسنجعل هذه النصوص تحت عنوانين:

الأول: من بدء الساعة حتى الجنة والنار.

الثاني: وصف الجنة والنار وما لأهلهما فيهما.

ونؤثر أثناء الدراسة والبحث عدم السؤال والتفصيل لأن هذه القضايا للإيمان والعبرة والعمل، وكلما كان الإنسان أكثر علماً كان أكثر وقوفاً على النص وإيماناً به. ولنبدأ بعرض الموضوع:

(أ) من الساعة حتى الجنة والنار

١ - قال تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٨].

للستة الا الترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

(ما بين النفختين أربعون) قيل: أربعون يوماً؟ فقال أبو هريرة: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. (ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى الاعظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة).

قال تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ** ﴾ [يس: ٥١ - ٥٣].

٢ - ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [سورة الزلزلة].

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾(١) [طه : ١٠٥ - ١٠٧] .

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة : ٤ ، ٥] .

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾(٢) [الواقعة : ١ - ٦] .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾(٣) [الرحمن : ٣٧] .

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩ ، ١٠] .

﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ [القيامة : ٧ - ١٠] .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : ١ - ١٤] .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار : ١ - ٥] .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١ - ٥] .

٣ - روى الشيخان عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال :

(يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقر ليس فيها علم لأحد) .

---

(١) الأمت : النتوء اليسير .

(٢) البس : الفت ، والهباء المنبث : الغبار المنتشر . (٣) أي حمراء .

روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلاً، أول الخلق يكسى إبراهيم الخليل ثم قرأ : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] وفي رواية : (تحشرون حفاة عراة غرلاً) فقالت امرأة : أيبصر بعضنا عورة بعض؟ قال : (يا فلانة . . لكل منهم يومئذ شأن يغنيه) للشيخين والترمذى والنسائي .

روى أنس : أن رجلا قال : يا رسول الله . . قال الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ** ﴾ [الفرقان : ٣٤] أيحشر الكافر على وجهه؟ قال : « أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) للشيخين .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم) قيل : يا رسول الله . . وكيف يحشرون على وجوههم؟ قال : (إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك) للترمذى .

وعنه عن رسول الله ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طراق : راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسى معهم حيث أمسوا) رواه الشيخان والنسائى .

٤ - ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا** ﴾ [المعارج : ٤ - ١٠] .

﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [المطففين : ٤ - ٦] .

روى الشيخان والترمذى عن ابن عمر وتلا : ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ فقال : (يقوم أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه) .

روى المقداد عن رسول الله ﷺ : (تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل) قال سليم بن عامر : فوالله ما أدرى ما يعنى بالميل . أمسافة الأرض أو الميل الذى يكتحل به العين؟ قال : (فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون إلى كعبه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً - وأشار ﷺ بيده إلى فيه -) لمسلم والترمذى .

وروى الشيخان عن رسول الله ﷺ : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) .

قيل : يا رسول الله «**يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**» فما أطول هذا اليوم . . فقال ﷺ : (والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا) لأحمد والموصلي .

٥ – قال تعالى : ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ [الاسراء : ١٣، ١٤] .

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ** ﴾ [سورة ق : ١٦ – ٢٣] .

﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ** ﴾ [الحاقة : ١٣ – ٣٧] .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٦ - ١٥].

﴿ هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩].

٦ - قال عليه الصلاة والسلام (من نوقش الحساب عذب . قالت عائشة أليس يقول الله : « **وأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا** » فقال ان ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك) . وفى رواية (وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب) للشيخين وأبى داوود والترمذى .

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٣].

روى أنس (كنا عند النبى ﷺ فضحك فقال هل تدرون لم أضحك؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يا رب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فانى لا أجيز اليوم على نفسى شاهداً إلا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا والكرام الكاتبين شهوداً فيختم عليه فيه ويقول لأركانه انطقى فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعدا لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل) لمسلم .

روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : (لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم) .

وروى ابن مسعود عن رسوله الله ﷺ : (أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة وأول ما يقضى بين الناس فى الدماء) للشيخين والترمذى والنسائى بلفظه .

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء منه فليحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه) .

روى البخاري عن قتادة عن صفوان بن محرز : أن رجلاً سأل ابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال : (يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول أعملت كذا وكذا؟ فيقول نعم ويقول عملت كذ وكذا فيقول نعم فيقرره ثم يقول إني سترت عليك في الدنيار وأنا أغفرها لك اليوم) .

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (أتدرون ما المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال : (إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم يطرح في النار) .

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة . حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) لمسلم والترمذي .

وروى أبو أمامة عن رسول الله ﷺ : (وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ومع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي) .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : (يدخل الجنة من أمتي زمرة سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر فقام عكاشة ابن محصن الأسدي فرفع نمرة عليه فقال : يا رسول الله . . ادع الله أن يجعلني منهم قال اللهم اجعله منهم ثم قام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال : سبقك عكاشة) للشيخين .

٧ - ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٧ - ٨] .

﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : (أن رجلاً قال يا رسول الله . . إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟

فقال النبى ﷺ : (إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتضى لهم منك الفضل) . فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكى . . فقال له ﷺ : (أما تقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ . إلى ﴿ حَاسِبِينَ ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد لى ولهؤلاء شيئًا خيراً من مفارقتهم أشهدك أنهم كلهم أحرار) . .

٨ – وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ : لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١] قال : (أتدرون أى يوم ذلك)؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : (ذلك اليوم ينادى الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول : يا آدم . . ابعث بعث النار . فيقول : أى رب . . وما بعث النار؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد إلى الجنة) فيئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة فلما رأى الذى بأصحابه قال : (اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ومن مات من بنى آدم وبنى ابليس) فسرى عن القوم بعض الذى يجدون، قال : (اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير – أو كالرقمة فى ذراع الدابة) .

٩ – روى أبو سعيد : قلنا يا رسول الله . . هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال : (نعم . . فهل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب)؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : (فما تضارون فى رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان غير الله من الأصنام والأنصاب الا يتساقطون فى النار حتى إذا لم يبقى إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر غير أهل الكتاب فيدعى اليهود فيقال لهم : ما كنتم تعبدون؟ قالوا : نعبد عزير ابن الله . فيقال : كذبتم . . ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون؟ قالوا : عطشنا يا رب فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون فى النار . ثم تدعى النصارى فيقال لهم . ما كنتم تعبدون؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله . فيقال لهم : كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون فى النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم الله فى أدنى صورة من التى رأوه فيها قال : فما تنتظرون؟

تتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا : يا ربنا . . فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم . فيقول : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئًا - مرتين أو ثلاثًا - حتى أن بعضهم يكاد أن ينقلب فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون : نعم . فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله مرة اتقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه . ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم؟ فيقولون : أنت ربنا . ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون : اللهم سلم سلم . قيل : يا رسول الله . . وما الجسر؟ قال : دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس فى نار جهنم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذى نفسى بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لاخوانهم الذين فى النار فيقولون : ربنا : كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتهم . فتحرم صورهم على النار، فخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبتيه، ثم يقولون : ربنا . . ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به . فيقول : أرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه . فيخرجون خلقًا كثيراً ثم يقولون : ربنا . . لم نذر فيها أحداً مما أمرتنا . ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه . فيخرجون خلقًا كثيراً، ثم يقولون : ربنا . . لم نذر فيهم خيراً) . وكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرأوا ان شئتم : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ٤٠] . فيقول الله تعالى : (شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض)؟ فقالوا : يا رسول الله . . كأنك كنت ترعى بالبادية . قال : (فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه . ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم . فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين . فيقول : لكم عندى

أفضل من هذا. فيقولون: يا ربنا.. أى شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائى فلا أسخط عليكم بعده أبداً)..

وروى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ: (إن من أمتى من يشفع للفئام من الناس ومنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للواحد حتى يدخلوا الجنة).

وروى عبد الله بن أبى الجدعاء عن رسول الله ﷺ، (يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من بنى تميم) قلنا: سواك يا رسول الله؟ قال: (نعم سواى).

روى أنس: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لى يوم القيامة قال: (أنا فاعل إن شاء الله) قلت: فأين أطلبك؟ قال: (أول ما تطلبنى على الصراط) قلت: فإن لم ألقاك على الصراط؟ قال: (تطلبنى عند الميزان) قلت: فإن لم ألقاك عند الميزان؟ قال: فاطلبنى عند الحوض، فإنى لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن).

روى المغيرة عن رسول الله ﷺ: (شعار المؤمنين على الصراط يوم القيامة: رب سلم).

قال تعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا * وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٨ - ٧٢].

١٠ - روى سمرة عن رسول الله ﷺ: (إن لكل نبى حوضاً ترده أمته وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإنى لأرجو أن أكون أنا أكثرهم واردة) للترمذى.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: (ترد على أمتى الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله) قالوا: يا نبى الله تعرفنا؟ قال: (نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون على غراً محجلين من آثار الوضوء ولتصدن على طائفة منكم فلا يصلون فأقول: يا رب.. هؤلاء من أصحابى. فيجيبنى ملك فيقول: وهل تدرى ما أحدثوا بعدك). للشيخين.

روى أنس عن رسول الله ﷺ: (ليردن على الحوض رجال حتى إذا رفعوا إلى اختلجوا دونى فأقول: أى رب.. أصحابى أصحابى.. فيلقولن لى: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك).

روى أبو ذر: قلت: يا رسول الله.. ما آنية الحوض؟ قال: (والذى نفسى بيده لآنيته أكثر من عدد النجوم فى السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة المصحية، فيه

ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ. عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل) للترمذى ومسلم.

روى أبو طالوت: (إن أبا برزة الأسلمى دخل على عبد الله بن زياد فلما رآه قال: أن محمديكم هذا لدحداح. ففهمها الشيخ، فقال: ما كنت أحسب أن أبقى فى قوم يعيروننى بصحبة محمد ﷺ. فقال له عبد الله: ان صحبة محمد لكم زين غير شين، قال: إنما بعثت إليك لأسألك عن الحوض هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر فيه شيئًا؟ قال أبو برزة: نعم.. لا مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً ولا أربعاً ولا خمساً فمن كذب به فلا سقاه الله منه - ثم خرج مغضباً) لأبى داوود.

١١ - روى جابر عن رسول الله ﷺ: (يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثعارير) قلنا وما الثعارير؟ قال: (الضغابيس)[١] للشيخين.

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ: (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة.. أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل - فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية) لمسلم.

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا) للبخارى.

روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ: (انى لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة: رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله تعالى له: اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب.. وجدتها ملأى فيقول الله: اذهب فأدخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها - أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا - فيقول: أتسخر بى - أو تضحك بى - وأنت الملك؟ - فلقد رأيت رسول الله يضحك حتى بدت نواجذه. فكان يقول: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة) للشيخين والترمذى.

وروى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ: (آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشى مرة ويكبو مرة وتسفعه[٢] النار فإذا جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذى نجانى منك

(١) الضغبوس: ولد الثعلب، أو الرجل الضعيف (المنجد).

(٢) تسفعه النار: أى تلفحه لفحا يغير بشرته.

لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين. فترفع له شجرة فيقول: يا رب.. أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها. فيقول الله تعالى: لعلي أن أعطيتكها تسألني غيرها فيقول: لا يا رب. ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى فيقول: أى ربى.. أدنني من هذه الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم.. ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي أن أدنيتك منها تسألني غيرها. فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه تعالى يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه. فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين فيقول: يا رب.. أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابني آدم.. ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى يا رب هذه لا أسألك غيرها، وربه تعالى يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أى رب.. أدخلنيها. فقال: يا ابن آدم.. ما يصريني[1] منك؟ أيرضيك أن أعطيك قدر الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب.. أتستهزىء مني وأنت رب العالمين؟ - فيضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مما أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ فقال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزىء مني وأنت رب العالمين، فيقول: لا أستهزىء منك ولكني على ما أشاء قدير) لمسلم.

روى الطبراني في الكبير والأوسط عن سلمان عن رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من الله لفلان ابن فلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية).

روى مسلم عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك).

(ب) الجنة والنار

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

روى مالك والشيخان والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم) قالوا: والله إن

---

(١) ما يصريني منك: أي ما الذي يرضيك ويقطع مسائلتك.

كانت لكافية يا رسول الله. قال: (فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦]. وانظر إلى هذه الاشارة المميزة إلى الجلود وكونها مذاق العذاب، إذ أن العلماء اليوم يقولون أن مركز الأعصاب الحاسة بالألم هي الجلود.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩] ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧].

روى الشيخان والترمذى عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان يوم القيامة أتى بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار فيذبح وهم ينظرون فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة ولو أن أحداً مات حزنا لمات أهل النار).

وفى رواية: (فيؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد: يا أهل الجنة.. فيشرئبون وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم.. هذا الموت وكلهم قد رآه. ثم ينادى مناد: يا أهل النار.. فيشرئبون وينظرون فيقول لهم: أهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم.. هذا الموت، وكلهم قد رآه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول: يا أهل الجنة.. خلود فلا موت، ويا أهل النار.. خلود فلا موت ثم قرأ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩] وأشار بيده إلى الدنيا).

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

﴿ وترى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

روى الترمذي عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ: (لسرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار مسافة أربعين سنة).

قال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣، ١٠٤].

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١ - ١٤].

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٤، ٥٥].

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٧].

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨].

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤ – ٧٧].

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٣ – ٥٠].

﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨].

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٤١ – ٥٦].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٦ – ٨].

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل: ١٢، ١٣].

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٢٧ – ٣٠].

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان: ٤].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ * لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ[1] صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ [المرسلات: ٢٨، ٣٩].

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٢١ – ٣٠].

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ١ – ٧].

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ [الفجر: ٢٣ – ٢٦].

روى مسلم والترمذى عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: (يؤتى بالنار يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها).

﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة: ٤ – ٩].

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠].

---

(١) بكسر الجيم وفتح الميم واللام وضم التاء، أى: جمال.

روى الشيخان والترمذى عن أنس:
(لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك) .

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ : (إن أدنى أهل النار عذاباً ينتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه من حرارة نعليه) .

روى سمرة عن رسول الله ﷺ (إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته) هما لمسلم.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : (ضرس الكافر - أو ناب الكافر - مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث) .

روى أنس عن رسول الله ﷺ (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك من نعيم قط؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مربك من شدة قط؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بى من بؤس قط ولا رأيت شدة قط) . لمسلم.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون . أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة والألنجوح عود الطيب[1] وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء) .

وفى رواية أخرى (لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا) . للشيخين والترمذى.

روى جابر عن رسول الله ﷺ (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا : فما بال الطعام؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس) وفى رواية بدل التحميد (الحمد) وفى أخرى (التكبير) .

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته فى السفر نزلاً لأهل الجنة . فأتى رجل

---

(١) الرشح : العرق، المجامر، مواضع البخور، الألوة : العود .

من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خبزة واحدة - كما قال النبى ﷺ - فنظر النبى ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: بلى.. قال: إدامهم بالام ونون قالوا وما هذا؟ قال ثور ونون يأكل من زيادة كبدهم سبعون ألفا) للشيخين ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٥] أزواج مطهرة أى مما يستقذر من النساء كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلقة وأما معنى ﴿ **وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا** ﴾: قال ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ: متشابها فى اللون والمرأى وليس يشبه الطعم الطعم وقال مجاهد: متشابها لونه مختلفاً طعمه وكذلك قال الربيع بن أنس وقال يحيى بن أبى كثير: عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك. ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتون بمثلها فيقولون: هذا الذى جئتمونا به آنفا فيقول لهم الخدم: كلوا فإن اللون واحد والطعم مختلف. وقال عبدالرحمن بن زيد: يعرفون أسماءه كما كان فى الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان وليس هو مثله فى الطعم، واختاره ابن جرير).

﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. والآية دلت على أن الجنة موجودة الآن ومن قبل، ويستغرب بعضهم أن تكون الجنة بهذه السعة، ولو أدركوا أن الجنة فوق السماء السابعة وأن سقفها عرش الرحمن. وأن السماء محيطة، وأن محيطة الدائرة أكبر من قطرها، لما أشكل عليهم فى ذلك شىء إذا كان إيمان وعلم، فالجنة واسعة أكثر من كل تصور خطر على قلب بشر، فلا تستغرب أن يكون حظ المؤمن منها كبيرًا فوق التقديرات.

روى المغيرة عن رسول الله ﷺ: (سأل موسى عليه السلام ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له أدخل الجنة، فيقول أى رب: كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم، فيقال له: أما ترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت يا رب فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله قال فى الخامسة: رضيت يا رب فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول: رضيت يا رب. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت كرامتهم بيدى وختمت عليهم فلم تر عين ولم تسمع أذن

ولم يخطر على قلب بشر، قال غرس: ومصداقه فى كتاب الله تعالى: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧].

روى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ: (إن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض والفردوس أعلى درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله فأسئلوه الفردوس».

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٢ - ٤٣].

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة عن النبى ﷺ قال: (ينادى مناد: آن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وآن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦].

روى جرير: (كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فأفعلوا ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق: ٣٩]. للشيخين والترمذى وأبى داوود.

روى صهيب عن رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تعالى).

(زاد فى رواية ثم تلى هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ لمسلم والترمذى.

روى أنس عن رسول الله ﷺ: أتانى جبريل عليه السلام وفى يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء فقلت ما هذه يا جبريل قال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون

لك عيدا ولقومك من بعدك تكون أنت الأول واليهود والنصارى من بعدك قال ما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير ولكم فيها ساعة من دعا ربه فيها بخير هو له قسم إلا أعطاه إياه أو ليس له بقسم إلا ذخر له ما هو أعظم منه أو تعوذ فيها من شر هو عليه مكتوب إلا أعاذه منه أو غير مكتوب إلا أعاذه الله منه. قلت ما هذه النكتة السوداء فيها قال: هذه الساعة تقوم يوم الجمعة وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد قلت لم تدعونه يوم المزيد قال: إن ربك تعالى اتخذ فى الجنة واديا أفيح من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسيه ثم حف الكرسى بمنابر من نور وجاء النبيون حتى يجلسوا عليها ثم يجيء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكتب فيتجلى لهم ربهم تعالى حتى ينظروا إلى وجهه وهو يقول أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى هذا محل كرامتى فاسألونى فيسألونه الرضا فيقول تعالى: رضائى أحلكم دارى وأنا لكم كرامتى، فاسألونى فيسألونه حتى تنتهى رغبتهم فيفتح لهم عند ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى مقدار منصرف الناس يوم الجمعة ثم يصعد تعالى على كرسيه فيعود معه الشهداء والصديقون - أحسبه قال: ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم درة بيضاء لا قصم فيها ولا فصم أو ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء منها غرفها وأبوابها مطردة فيها أنهارها متدلية فيها ثمارها فيها أزواجها وخدمها فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا فيه نظراً إلى وجهه تعالى ولذلك دعى يوم المزيد). للبزار والكبير والأوسط والموصلى.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٣٠ - ٣١].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨].

فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

(من يدخل الجنة ينعم فلا ييأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

(تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء) .

وروى الترمذى عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صلى الصلوات الخمس وصام شهر رمضان كان حقاً على الله أن يغفر له . . هاجر أو قعد حيث ولدته أمه) قلت : يا رسول الله . . ألا أخرج فأؤذن الناس؟ قال : (لا . . دع الناس يعملون فإن فى الجنة مائة درجة بين كل درجتين مثل ما بين السماء والأرض وأعلاها درجة منها الفردوس وعليها يكون العرش وهى أوسط شىء فى الجنة ومنها تفجر أنهار الجنة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس) .

قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٥٩ – ٦٣] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ٢٣ – ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩] .

فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال :

(إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً) .

وروى الطبرانى عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : (إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن أطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام) .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٥ – ٥٨] .

روى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً).

قال عكرمة في قوله تعالى: : ﴿ **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ** ﴾ أي افتضاض الأبكار، وقال ابن مسعود: افتضاض العذارى.

روى ابن ماجه عن رسول الله ﷺ قال: (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة وهو قول الله عز وجل ﴿ **سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم).

قال تعالى: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[الزمر: ٧٣ - ٧٥].

في الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: (في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون) وفيهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان) فقال أبو بكر بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال: (نعم وأرجو أن تكون منهم).

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال: (ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو يسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء).

زاد الترمذي بعد التشهد (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين) زاد أبو داوود والإمام أحمد (ثم يرفع نظره إلى السماء) وعند أحمد عن أنس عن رسول الله ﷺ: (من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال ثلاث مرات أشهد أن لا إله إلا الله).. إلخ. وعن عتبة بن عبدالله السلمي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من

مسلم يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل) رواه ابن ماجه وعبدالله بن أحمد .

وروى أبو هريرة فى حديث الشفاعة قال ﷺ (فأنطلق فآتى العرش فأقع ساجداً لربى فيقيمنى رب العالمين مقاماً لم يقمه أحداً قبلى ولا يقيمه أحداً بعدى فأقول يا رب أمتى أمتى فيقول يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن (وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب) والذى نفس محمد بيده أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر (أو هجر ومكة) وفى لفظ (لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى) متفق عليه وفى لفظ خارج الصحيح بإسناده (أن ما بين عضادتى الباب لكما بين مكة وهجر . .) .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣١ - ٣٢] .

﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ الزخرف : ٦٨ - ٧٣] .

زوجة الإنسان التى كانت له فى الدنيا تكون أجمل من الحور العين فى الجنة ولكل ما تشتهى نفسه وتلذ عينه .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الدخان : ٥١ - ٥٧] .

فى صحيح مسلم من حديث جابر قال (قال رسول الله ﷺ يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم ذلك جشاء كريح المسك يلهمون التسبيح والحمد) .

وفى المسند والنسائى بسند صحيح عن زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبى ﷺ فقال يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال نعم والذى نفس محمد بيده أن أحدهم ليعطى قوة مئة رجل فى الأكل والشرب

والجماع والشهوة : قال فإن الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة وليس فى الجنة أذى قال يكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه) ورواه الحاكم فى مستدركه بنحوه .

وروى الحسن بن عرفة عن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : (إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً) .

وروى الحاكم عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ (إن فى الجنة طير أمثال (البخاتى) فقال أبو بكر (أنها لناعمة يا رسول الله قال : أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها) .

وروى الحاكم عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴾ [الواقعة : ٢١] نحوه وعن ابن عمرو فى قوله تعالى : ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ** ﴾ [الزخرف : ٧١] قال بسبعين صفحة كل صحفة فيها لون ليس فى الأخرى) .

روى أبو هريرة أن النبى ﷺ كان يتحدث وعنده رجل من أهل البادية : أن رجلا استأذن ربه فى الزرع فقال ألست فيما شئت؟ يقول : بلى ولكن أحب ذلك فيؤذن له فيبذر فيبادر الطرف نباته واستحصاده وتكويره أمثال الجبال فيقول الرب تعالى دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شىء فقال الأعرابى : إنك أن تجده إلا قرشياً أو أنصارياً فإنهم أصحاب زرع فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه) للبخارى .

قال أبو سعيد إن المؤمن إذا اشتهى الولد فى الجنة كان حمله ووضعه وسنه فى ساعة واحدة كما يشتهى رواه الترمذى . وقد فسرت تحبرون فى الآية ﴿ **أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** ﴾ باللذة والسماع وقد وردت آثار فى سماع أهل الجنة من أزواجهن ومن الحور العين ومن بعض الملائكة وهو (أى السماع) على كل حال مما تشتهيه النفس ولهم فيها ما يشتهون ولا تشتهى أنفسهم إلا الطيب .

﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [محمد : ١٥] .

روى الترمذى عن معاوية جد بهز بن حكيم عن رسول الله ﷺ أن فى الجنة بحر العسل وبحر الخمر وبحر اللبن وبحر الماء ثم تنشق الأنهار بعد) .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الطور: ١٧ – ٢٤] ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ* فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٤٦ – ٧٨].

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ* فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ* وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ* عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ* مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ* يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ* بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ* لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ* وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ* وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ* وَحُورٌ عِينٌ* كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ* جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ

مَّسْكُوب * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا* لأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ *وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٠ - ٤٠].

روى الشيخان والترمذى عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن).

وفى الصحيحين عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال (أدخلت الجنة فإذا بها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك).. وهو قطعة من حديث المعراج.

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ سأل ابن صياد عن تربة الجنة فقال: (درمكة بيضاء مسك خالص فقال صدق. وروى سفيان بن عيينة عن جابر بن عبدالله فى قصة اليهود: فلما أن جاءوه قالوا يا أبا القاسم كم عدد خزنة أهل النار؟ فقال رسول الله ﷺ (بيديه كلتيهما هكذا وهكذا) وقبض واحدة أى تسعة عشر فقال لهم رسول الله ﷺ (ما تربة الجنة؟) فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا خبزة فقال الخبزة من الدرمكة).

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرأوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ وروى أحمد عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين أو مائة سنة هى شجرة الخلد. وروى ابن أبى الدنيا عن ابن عباس قال: الظل الممدود شجرة فى الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد فى ظلها مائة عام فى كل نواحيها فيخرج إليها أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون فى ظلها: قال فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فيحرك تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا).

وقد روى الترمذى عن أنس عن النبى ﷺ قال: (يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع) قيل يا رسول أو يطيق ذلك؟ قال: (يعطى قوة مائة) حديث صحيح.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا *حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا* وَكَأْسًا دِهَاقًا* لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا * جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٦].

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ* وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٨].

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان ٥ – ٢٢].

قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ: (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) رواه الشيخان.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾(١) [الغاشية: ٨ – ١٦].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: ٧ – ٨].

(روى البخارى ومسلم والترمذى عن رسول الله ﷺ قال: (غدوة فى سبيل الله

---

(١) النمارق: الوسائد. والزرابى: البسط. والمبثوثة: المبسوطة.

أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها يعنى خمارها خير من الدنيا وما فيها) .

* * *

– ٨ –

اليوم الآخر، الجنة والنار، هذا هو المؤيد الأخير للإسلام الذى لا يبقى للإنسان خياراً، إما الإسلام والجنة، وإما الكفر والنفاق والنار، فأى خيار بعد هذا؟ .

والقضية ليست قضية خيالات أو أوهام كما يتصورها الكافرون، وكما يحاولون إبرازها بعض المغرضين ممن كتبوا عنها من أهل الكتاب الأدبية .

وإنما هى أكبر الحقائق بعد وجود الله إذ هى الفرع الأكبر لرسالة الرسل. ومن قرأ البحث الأول (الله) عرف أن الأمر على الله سهل. ومن قرأ بحث (الرسول) ﷺ عرف أن المسألة حق لا ريب فيها، لأنها بلاغ أصدق الصادقين، من قامت الأدلة على أنه رسول الله، وصادق بشكل لا يرتاب معه إنسان ذو عقل .

هذا هو المؤيد الذى يجعل المؤمنين لا يبالون بنصر قريب عاجل، أو ببلاء يصبه عليهم أعداؤهم صباً، أو بخسارة دنيا صغيرة مهينة، وكيف يبالون والله الذى لا أحد أصدق منه يثبت فؤادهم بما أعد لهم من فوز وغلبة فى اليوم الآخر اليقينى الوقوع، الذى لا تساوى الدنيا بالنسبة إليه شيئاً .

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩ – ٣٦] .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ

يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤ – ٥١].

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٥٠ – ٦١].

﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ * هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: ٤٩ – ٦٤].

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ *

قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ [غافر: ٤٧ – ٥٠].

﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ [سبأ: ٣١ – ٣٣].

﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ [الأعراف: ٣٨ – ٣٩].

﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب * إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ [البقرة: ١٦٥ – ١٦٧].

(٩)

ونختم هذا البحث بما ذكره الأستاذ المودودى عن اليوم الآخر فى كتابه (الحضارة الإسلامية : أسسها ومبادئها) ننقلها مع حذف لبعض الجمل لتثبيت معان مهمة .

الإيمان باليوم الآخر(١):

المراد باليوم الآخر الحياة بعد الموت . وقد سمى ذلك بالحياة الآخرة، ودار الآخرة، وقلما تخلو صفحة من صفحات القرآن . والقرآن قد أبدأ القول وأعاد لإرساخه فى ذهن الإنسان، وأقام الأدلة على صدقه . وبين حكمته وأهميته، ودعا إلى الإيمان به،

(١) يراجع كتاب تعريف عام بدين الإسلام للأستاذ على الطنطاوى (الناشر) .

وقال بكل صراحة أن الإنسان إن كان لا يؤمن به فقد حبطت أعماله، ولا خسارة فى الدنيا أعظم من خسارته..

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٣١].

والاعتقاد باليوم الآخر الذى قد عرض بمثل هذه الأهمية البالغة هو فى حقيقة أمره جواب عن أسئلة تنشأ فى ذهن الإنسان وتنبعث من نفسه بسابق فطرته التى قد فطر عليها.

أسئلة فطرية:

إن الإنسان يشعر بالحزن أكثر مما يشعر بالفرح، وبالإلم والنكبة أكثر مما يشعر بالراحة والنعمة وهذه عين طبيعته، فان كل شيء إذا كان أسرع صدمة لأحاسيسة كان أكثر تحريكاً لقوة فكره، ألا ترى أننا حين نحصل على شيء فقلما نتساءل من أين جاء؟ وكيف جاء؟ وإلى متى يبقى عندنا؟ ولكن حين نفقد شيئًا فإن الحزن عليه يصب على مخيلتنا سوطًا قويًا، وهناك نجد أنفسنا نتساءل: كيف قد ضاع علينا؟ وأين قد ذهب؟ وأين عسى أن يكون الآن؟ وهل عسى أن نعثر عليه مرة أخرى؟ ولأجل هذا فإن السؤال عن مبدأ الحياة لا يهمنا بقدر ما يهمنا السؤال عن الموت وما بعده؟ لا شك أننا حين نرى هذا العالم ووجودنا فيه قد نتساءل ما هذا العالم؟ كيف بدأ؟ ومنذا قد أحدثه؟ ولكن ما كل هذه التساؤلات إلا من أحاديث الفراغ ولذا فإن عامة الناس قلما يشغلون بها أذهانهم، وإنما عدد يسير من الخواص أصحاب الفكر العميق هم الذين يشغلون بها أذهانهم، وعلى العكس من ذلك فإن كل إنسان فى الدنيا لابد وأن يفكر فى الموت ومرارته.. لابد أن تعرض له فى حياته غير حادثة واحدة يرى فيها أقاربه وأحبابه يفارقون الحياة أمام عينيه.. يموت الفقير والغنى الضعيف والقوى.. ومن حوادث الموت ما يترك فى الأذهان والقلوب المآسى والأحزان والعبر وأخيراً يستيقن كل حى بانه هو الآخر لابد أن يمضى على السبيل الذى قد مضى عليه غيره.. ولعل الدنيا ليس فيها فرد واحد يشاهد هذه الحوادث والمناظر ثم لا يقلقه السؤال عن الموت ولا يتساءل.. ما هذا الموت؟ وأين يفضى الإنسان بعد اجتياز بابه؟ وماذا وراء هذا الموت؟ بل هل وراءه شيء أم لا؟.

هذا السؤال عام قد تفكر فيه العوام والخواص جميعاً، من الفلاحين العاديين، إلى الفلاسفة والحكماء النطاسيين الكبار، وهناك فى هذا الصدد أسئلة أخرى تخالج نفس كل ذى فكر تقريبًا ويزيد من شدتها ما يعرض له فى حياته من حوادث مقلقة كثيرة.

إن هذه الحياة القصيرة التى ينالها كل فرد منا فى هذه الدنيا لا تنقضى كل لحظة من لحظاتها إلا فى جهد من الجهود، أو حركة من الحركات، حتى أن الذى نسميه السكون والركود ما هو فى حقيقة أمره إلا حركة، والذى نسميه البطالة والفراغ ما هو فى حقيقة أمره إلا عمل وشغل. ولابد أن يكون لكل فعل من هذه الأفعال مفعول، ولكل حركة من هذه الحركات تجاوب، ولكل جهد من هذه الجهود ثمرة وعاقبة. من اللازم أن تكون ثمرة كل حسنة حسنة، وثمرة كل سيئة سيئة، ولابد أن تظهر نتيجة كل سعى طيب بصورة طيبة، ونتيجة كل سعى خبيث بصورة خبيثة، ولكن هل أننا فى هذه الحياة ننال ثمرة كل جهد من جهودنا، ونتيجة كل فعل من أفعالنا؟ أن رجلاً فاسقًا مازال طول حياته يرتكب المنكرات والفواحش فنال جزءاً بعضها فى هذه الحياة الدنيا نفسها بصورة مرض أو ألم أو مصيبة أو نكبة، ولكن على ذلك بقيت منكرات كثيرة ما نال جزاءها فى حياته الدنيا هذه على أكمل وجه وأوفاه فكانت منها – مثلا – منكرات ارتكبها مستتراً فلم يعلم بها الناس، وما زالوا يرون فيه رجلاً صالحًا على غير حقيقته، وأن علموا بها فان المسكين الذى ظلمه ما لقى فى هذه الحياة ما يتلافى به خسارته على كل حال. والامر إذا كان هكذا فهل يبقى ظلم هذا الظالم، وصبر هذا المظلوم دون ما نتيجة؟ أو لا تظهر لظلمه ولا لصبرهم عاقبة أبداً؟ وقل مثل هذا بالنسبة للمعروفات والحسنات. فكم من رجال صالحين مازالوا يعملون الصالحات طول حياتهم ولكن دون أن ينالوا جزاءها فى حياتهم الدنيا هذه على أكمل وجه وأوفاه، فاشتهروا بالسوء على بعضها أصلاً فهل قد ذهبت كل أعمالهم الصالحة هباء منثوراً؟ وهل يكفى لهم جزاءً على كل جهودهم المضنية المتتابعة أن قد نالوا ارتياحًا نفسيًا وطمأنية قلبية.

هذا السؤال يتعلق بالأفراد والأشخاص. ولكن هناك بعد هذا السؤال سؤال آخر يتعلق بمصير هذا العالم. وعاقبة كل ما فيه من الأنواع والأجناس والعناصر. وبيانه أن هذا العالم يموت فيه أناس ثم يولد مكانهم أناس آخرون، وتفنى فيه أشجار وأنعام ثم تنبت أو تولد مكانها أشجار وأنعام أخرى. فهل أن سلسلة الموت والحياة هذه تبقى جارية مضطردة هكذا دون ما نهاية؟ وهل أن هذا الهواء، وهذا الماء، وهذا النور، وهذا الحر، وهذه القوى الطبيعية التى يجرى بها هذا المعمل الكونى العظيم على أسلوب مضبوط.. هل هى كلها خالدة لا يعتريها الزوال والفناء أبدًا؟ أليس لها أجل محدود؟ أليس لنظامها وترتيبها أن يعرف نوعًا من التغير والتبدل؟ إن الإسلام قد عالج كل هذه الأسئلة، وما عقيدة الحياة الآخرة فى حقيقة الأمر إلا جواب عن هذه الأسئلة، ولكن مما يحسن بنا قبل أن نتكلم عن هذا العلاج وصدقه ونتائجه المعنوية والمدنية.. أن ننظر

أين من إلنجاح والتوفيق ما قد بذل الإنسان نفسه من الجهود والمساعى لعلاج هذه الأسئلة؟.

* * *

إنكار الآخرة:

تقول طائفة من الناس أن الحياة إنما هى هذه الحياة التى نحياها، وأن ليس معنى الموت إلا الفناء والزوال والانتهاء والانعدام، لا حياة بعده ولا شعور ولا ثمرات ولا نتائج:

إن هؤلاء ليقولون: ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ** ﴾ [الدخان: ٣٥].

﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ** ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وأما معمل الكون الذى نعيش فيه فيقولون إنه خالد أبدى لا زوال له ولا فناء، وأنه من القوة والمتانة والاستحكام بحيث لا يتسرب إليه الضعف والبلى أبد الدهر.

والذين يقولون بهذا لا يقولون به لأنهم قد عرفوا على وجه اليقين والتثبت بوسيلة من وسائل العلم أن لا شيء بعد الموت، وأن معمل الكون لا زوال له ولا فناء فى واقع الأمر، وإنما قد اعتمدوا فى ذلك على حواسهم، وما أقاموا هذا الرأى إلا لمجرد أنهم ما شعروا بكيفية ما بعد الموت، وما شاهدوا بأم أعينهم أثراً من آثار اختلال نظام العالم. ولكن هل إن مجرد عدم شعورنا بشيء برهان كاف على عدم وجوده فى واقع الأمر؟ وهل إن شعورنا بالأشياء هو وجودها، وأن عدم شعورنا بها هو عدم وجودها؟ ولو كان الأمر كذلك لكان من حقى أن أقول إن الشيء الفلانى الذى ألمسه بيدى، أو أنظر إليه بعينى، لا يبرز إلى حيز الوجود إلا عندما ألمسه بيدى أو أنظر إليه بعينى، وأنه عندما يتوارى عن عينى، ويغيب عن شعورى يفنى وينعدم، ولكان من حقى أن أقول: ان النهر الذى كنت رأيته ما كان خرج إلى عالم الوجود إلا حينما رأيته يجرى، ودخل عالم الفناء والعدم لما توارى عن نظرى، ولكن هل لرجل عاقل أن يعترف بصحة قولى هذا؟ والجواب على هذا أن كان بالنفى – وهو بالنفى ولا شك – فما لرجل عاقل أن يصدق الرأى القائل بأن لا شيء بعد الموت أصلاً لأنه ما جاء تحت مشاهدته وتجربته.

ثم إنه كما لا يصح الحكم بشيء على الموت والفناء لمجرد الاعتماد على الحس والمشاهدة، كذلك لا عبرة بالأمور التى يحكم بها على الحياة والبقاء لمجرد الاعتماد

على الحس والمشاهدة، وأنه إذا صح الحكم بالبقاء والخلود على معمل الكون لمجرد أن الإنسان ما رآه يفنى وينقرض بعينه، فإن لى إذا رأيت بناء مشيداً أن أقول انه لا يبلى ولا يفنى إلى أبد الآباد لأنى ما رأيته بأم عينى ينهدم، ولا رأيت فيه أثرًا للضعف ينبىء بزواله فى المستقبل. ولكن هل يكون هذا الاستدلال منى جديرا بالقبول والتسليم لدى أرباب العقل؟

تأثير إنكار الآخرة فى الأخلاق:

مما يكاد يجمع عليه رأى الحكماء والفلاسفة أن نظام العالم لابد له من الاختلال والانتهاء يوما من الأيام، ولعله ليس فى جماعة أهل العلم اليوم من لا يزال يقول بالنظرية القديمة القائلة بأزلية العالم وأبديته، غير أن فيهم عدداً لا يستهان به يقولون أن الموت إنما هو فناء محض لا حياة بعده بأى شكل من الأشكال، ولا تقوم عقيدتهم هذه إلا على أساس الأمر غير المعقول الذى ذكرناه آنفاً: ومن الحقيقة بشأن هذه الحقيقة – ولو قطعنا النظر عن عدم معقوليتها – أنها لا ترجع ولا تستطيع أن ترجع على الإنسان بشىء من الثقة والطمأنينة النفسية وليس فيها ما يجيب بشىء على كثير من الأسئلة التى تخالج نفس الإنسان عندما يتفكر فى شئون الحياة ومتعلقاتها. وفوق هذا فان الإنسان إذا كانت أخلاقه وأعماله قائمة على هذه العقيدة فانها لا تخلو من إحدى حالتين: إذا كانت ظروفه غير ملائمة له فلابد أن تصيبه هذه العقيدة بنوع من اليأس والقنوط والتقاعس وخور العزيمة لأنه عندما لا يرى فى حياته نتيجة لما يؤدى فيها من أعمال البر والصلاح والخير تبرد فيه قوة العمل والجد والنشاط، وهو عندما لا يجد فى هذه الحياة من ينصفه من ظالم ينكسر قلبه، وهو عندما يرى الظالمين الفاسقين فى هذه الدنيا يترفلون فى النعيم، ويستمتعون بلذات الحياة ومباهجها، ويحرزون فيها الرقى والتقدم، ويجمعون فيها أسباب البذخ والترف والقوة والبطش، يحسب أن الشر له الحكم النافذ والكلمة المسموعة فى عالم الحياة، وأن ليس فيه الخير، إلا ليكون ذليلاً مغلوباً على أمره. وعلى العكس من هذا فإن ظروفه إذا كانت ملائمة له، جارية على هواه، فانه لابد أن ينقلب إلى حيوان نهم يعبد هواه لتأثير هذه العقيدة فيه، وأنه إذا بقى محروماً من لذة من لذات الدنيا ونعمة من نعمها، فلا حياة له بعد هذه الحياة ليتداركها فيها، إذن لابد أن يظلم الناس، ويهضم حقوقهم، ويسفك دماءهم، وينهش أعراضهم، ويقطع أرحامهم، ويسعى فى الأرض فساداً، ولا يتحرج فى التسلح بأشنع وأبشع ما يكون من الحيل لتحقيق أهواء نفسه، وأن أكبر بر، وأعظم صلاح يمكن أن يتصوره هو ما يرجع على إظهاره بحسن القالة والسمعة والعز والكرامة، أو فائدة أخرى من الفوائد الدنيوية. كذلك لا يرى

الجرائم والذنوب إلا فى أعمال يخشى أن ترجع عليه بعقوبة دنيوية، أو مضرة جسدية، أو خسارة مادية.

أما الحسنات والخيرات والصالحات التى ترجع بنوع من المنفعة فى هذه الدنيا، فلا تكون فى نظره إلا سفاهة وحماقة، وأما السيئات والمستقبحات التى لا ترجع عليه بنوع من الخسارة فى هذه الدنيا، فلا تكون فى نظره إلا عين الحق والصواب.

ولعمر الحق أن مجتمعنا فى الدنيا إذا كان نظامه للاخلاق لا يقوم إلا على هذه العقيدة، وهذه العقلية، فلابد أن تنقلب كل تصوراته المعنوية وقيمه المعنوية ظهراً لبطن.. إذ لا يقوم كل نظامه للأخلاق والأعمال إلا على الأثرة والأنانية وحب الذات، ولا يكون البر والصلاح والخير فى نظره إلا عبارة عن المتعة المادية والفائدة الدنيوية، ولا يكون الاثم والذنب والشر فى نظره إلا عبارة عن الخسارة المادية الدنيوية، ولا يكون الكذب والمكر والخداع إثما فى نظره إلا إذا كان يسبب له نوعًا من الخسارة فى ماله أو جسده، وينقلب إلى عين الحق والصواب إذا ما أصبح يسبب له نوعًا من المنفعة فى ماله أو جسده. والصدق والاخلاص إذا كان يجلب إليه منفعة يكون فى نظره حسنة من الحسنات، ومكرمة من المكارم، وإذا كان يجلب إليه خسارة يكون أكبر سيئة وأعظم ذنب، والزنا يكون وسيلة لتحقيق لذة لنفس ومتعتها، ولا تحدث فيه ناحية للاثم، والفساد عنده إلا حين تحدث فيه ناحية للمضرة بصحته.

وجملة القول أن الإنسان ما دام لا يخاف أو لا يرجو نتيجة سيئة أو حسنة وراء هذه الحياة الدنيا، فانه لا يطمح ببصره وراء أعماله إلا إلى النتائج العاجلة الظاهرة فى هذه الدنيا نفسها. ولذلك لابد أن تتغير قيم الأعمال المعنوية على وجه ليس له بحال أن يكون ملائماً لمجتمع إنسانى مهذب، بل الأصح أن أى طائفة إنسانية إذا تمنت لأخلاقها مثل هذا المستوى الدنىء، فانها لن تنقذ نفسها من التدهور إلى درجة أحط من درجة البهائم والوحوش الضارية.

ولقائل أن يقول فى هذا المقام: أن الدنيا ليس فيها للجزاء أو العقاب الخسائر والمنافع المادية والجسدية فحسب بل هناك فى داخل الإنسان قوة تعرف بالضمير يكون تأنيبها وعدم ارتياحها عقوبة كافية للإنسان على اقتراف الذنوب والآثام، ويكون ارتياحها جزاءاً كافياً للإنسان على أدائه الحسنات والخيرات والصالحات.. إذا قيل هذا قلت جوابًا عنه: إن هناك من الذنوب والآثام ما إن فوائده الدنيوية ولذائذة المادية تجعل الإنسان لا يبالى بتأنيب الضمير، وهناك من الحسنات والصالحات ما لابد للإنسان إذا أراد أداءه أن يقوم بتضحيات جسيمة لا يكاد مجرد ارتياح الضمير أن يكون جزاء كافياً عليها. ثم إننا إذا فكرنا فى حقيقة الضمير نفسه علمنا أن ليست وظيفته أن

يخلق التصورات الخلقية، وإنما وظيفته أن يؤيد ما يرسخ فى ذهن الإنسان من التصورات الخلقية بنوع خاص من التربية والتعليم لأجل هذا فان ضمير الكافر لا يؤنبه على كثير من الأعمال التى يؤنب عليها ضمير المسلم إياه.. إذن فإن مجتمعاً إنسانياً إذا تبدلت تصوراته المعنوية، وانعكست مقاييسه للخير والشر، فانه لابد أن تتغير مع ذلك وجهة الضمير نفسه، فهو إذن لا يؤنب الأفكار أبداً على أعمال قد تخلى المجتمع عن الاعتقاد بفسادها، ولا يشعر بشيء من الارتياح والطمأنينة إذا ما اقترفوا أعمالاً لا يعتقد المجتمع بصلاحها.

عقيدة تناسخ الأرواح:

وطائفة أخرى تقدمت إلى الإنسانية بعقيدة أخرى بشأن ما بعد الموت هى عقيدة تناسخ الأرواح وخلاصتها أن الموت ليس معناه الفناء المحض، وإنما معناه استبدال الروح جسدا بجسد، يقولون أن الروح بعد ما تفارق جسداً فى هذه الدنيا تنتقل إلى جسد آخر فى هذه الدنيا نفسها، ولا يكون هذا الجسد الثانى أو القالب الثانى بكلمة أصح إلا متفقًا مع الحياة التى قد أعدها الإنسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه فى حياته الأولى، فان كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة، فإن روحه ستنتقل إلى طبقة مبتذلة من طبقات الحيوانات أو النباتات، وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات صالحة فان روحه سترتقى إلى طبقة من الطبقات العليا. وجملة القول أنه ليس الجزاء ولا العقاب بموجب هذه العقيدة إلا فى هذه الدنيا، وفى عالم الأجساد هذا كأن الأرواح إنما تأتى إلى هذه الدنيا مرة بعد مرة بقوالب متغيرة لتنال الجزاء أو العقاب على أعمالها السابقة.

لقد مر على الإنسانية حين من الدهر كانت فيه هذه العقيدة قد لاقت رواجاً وقبولاً عظيماً عاما بين أهل الأرض. كان يقول بها (فيثاغورس. وانبذقلس) وغيرهما من فلاسفة اليونان قبل المسيح بقرون. وكانت لها كلمة مسموعة فى الرومان قبل المسيحية، ولها آثار توجد فى تاريخ مصر القديمة، وقد خلت حتى فى اليهود لعوامل خارجية، ولكنها فى أيامنا الحاضرة لا توجد إلا فى ديانات هندية الأصل كالبرهمية، والبوذية، والجينية، أو فى أمم همجية، أو بعض همجية تقطن فى غرب أفريقيا وجنوبها ومدغشقر واستراليا الوسطى، واندونيسيا، وأوشيانا، وشمال أمريكا وجنوبها، وقد نبذتها وخرجت عليها سائر الأمم المتحضرة فى العالم لأن المعلومات التى قد أحرزها الإنسان عن الدنيا وحياتها لتقدم العلم والعقل تأبى أن تؤيد نظرية من النظريات التى تقوم على أساسها عقيدة تناسخ الأرواح.

حتى أننا إذا ما نظرنا فى تاريخ هذه العقيدة فى الديانات الهندية الأصل، علمنا بدون ما ريب أن لم يكن لها أى وجود فى الهند الويديكية القديمية وأن الذى كان يعتقده الآريون فى ذلك الزمان هو أن الإنسان بعد ما يفارق الحياة الدنيا يعود إلى حياة أخرى هى راحة ونعمة للذين قد عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيا، وعذاب أليم للذين قد عملوا فيها السيئات. ثم إن هذه العقيدة دخل عليها التغير دفعة واحدة، ومن ذلك أننا نجد من بين كتب الهند فى طورها الثانى كتبا توجد فيها عقيدة تناسخ الأرواح بصورة مذهب فلسفى، وإلى الآن ما تم التحقيق حول منشأ هذا التغير. يقول البعض أن هذه العقيدة إنما دخلت فى ديانة الآريين عن طريق (دراور) أى أمم الهند القديمة، ويقول البعض الآخر أنه كان لها وجود فى الطبقات السفلى من الآريين أنفسهم ومنها أخذ الفلاسفة البراهمة فيما بعد وأقاموا عليها بناء كاملاً للأوهام والظنون والقياسات وعلى غرار هذا فقد كانت ديانة بوذا فى أطوارها الأولى خالية خلوا تاما من فكرة ونظام تناسخ الأرواح كما هما يوجدان الآن فى كتب الديانة البوذية، والذى نعلمه بدراسة الكتب القديمة الأصلية لهذه الديانة أن عقيدتها فى أطوارها الأولى تقوم على أن الوجود إنما هو نهر يجرى متدفقاً بالتغير والانقلاب بصفة غير منقطعة، وهذه العقيدة نفسها ظهرت فيما بعد صورة عقيدة قائلة: بأن ليس فى العالم كله إلا روح واحدة هى التى تشكل دائما بالأشكال المختلفة، وتغير لنفسها القوالب تلو القوالب. ويفيد هذا أن العلم الذى كان حصل لأمم الهند القديمة من مصدر الوحى والالهام فى بدء أمرها بدلته هذه الأمم وأدخلت عليه الأوهام والظنون من تلقاء نفسها واخترعت – هكذا – من دون ديانة فلسفية لم تكن إلا ثمرة لأوهامها الباطلة وظنونها الكاذبة.

عقيدة تناسخ الأرواح فى ميزان النقد العقلى:

إنه لا مجال هنا لإطالة البحث فى عقيدة تناسخ الأرواح، لكن مما يكفى الإشارة إليه البيان أن النظريات والتصورات التى يقوم عليها بناؤها كلها تصادم العقل فى صميمه، وتنافى كل معنى العلوم التى نالها الإنسان حتى الآن بالنظر فى الدنيا وحياتها.

إنه لما يعتقده القائلون بتناسخ الأرواح أن الإنسان إنما ينال جزاء أعماله فى هذه الدنيا نفسها وذلك بصورة أنه يرتقى إلى الطبقات العليا بفضل أعماله الصالحة، ويتردى الى الطبقة السفلى من جراء أعماله السيئة فهو – مثلا – إذا كان قد عمل السيئات فى حياته يتردى إلى الطبقات الحيوانية أو النباتية والحيوان أو النبات إذا كان قد عمل الصالحات فى حياته يرتقى إلى الطبقات الإنسانية. ومعنى هذا أن ليس الحياة

الحيوانية والنباتية إلا نتيجة لسوء أعمال الحياة الإنسانية وأن ليست الحياة الإنسانية ألا نتيجة لصلاح أعمال الحياة الحيوانية أو النباتية أو - بكلمة أخرى - أن أفراد النوع البشرى الذين يوجدون الآن على وجه الأرض إنما هم أفراد النوع البشرى لأنهم قد عملوا الصالحات فى حياتهم الحيوانية أو النباتية وان أفراد النوع الحيوانى أو النباتى الذين يوجدون الآن على وجه الأرض إنما هم أفراد النوع الحيوانى أو النباتى، لأنهم قد عملوا السيئات فى حياتهم الإنسانية.

وللإيمان بهذه العقيدة لابد من الإيمان بعدة أمور أخرى كلها متنافية مع العلم والعقل فمثلاً:

١ - إن دورة التناسخ هذه كحلقة مفرغة لا يعرف مبدؤها من منتهاها لأنه من اللازم لكون الإنسان إنساناً بحكمها أن يكون فى حياته السابقة حيواناً أو نباتاً، ولابد لكون الحيوان حيواناً، ولكون النبات نباتاً أن يكون فى حياته السابقة إنساناً وهذه مسلسلة واهية يأبى العقل أن يسلم بصحتها.

٢ - إن دورة التناسخ إن كانت أزلية أبدية فلابد من الاعتراف بأن لا تكون الأرواح التى تنتقل فى أجساد بعد أجساد، وتستبدل القوالب مرة بعد مرة أزلية أبدية فحسب بل تكون كذلك المواد التى تهيأ لها القوالب فى كل مرة أزلية وأبدية، وأن يكون كل شيء من الأرض والنظام الشمسى والقوى العاملة فى هذا النظام أزلياً وأبدياً، ولكن الذى يدعيه العقل وتشهد بصحته التحقيقات العملية أن ليس نظامنا الشمسى أزلياً ولا أبدياً.

٣ - من اللازم الاعتراف بأن كل الخصائص التى توجد فى النباتات والحيوانات، وأفراد النوع البشرى هى خواص أجسادهم وما هى بخواص نفوسهم، لأن النفس التى كانت مالكة لقوى العقل والفكر فى هذا الإنسان، أصبحت لا تعقل لما انتقلت إلى قالب الحيوان، وسلبت السكينة حتى قوة الحركة الإرادية لها عندما انتقلت إلى قالب النبات.

٤ - أن كلمة الصلاح أو السوء إنما تطلق فى حقيقة الأمر على أعمال تعمل بالقصد والفكر، فمن الممكن على هذا الاعتبار أن تكون أعمال الإنسان صالحة أو سيئة، ومن الممكن أن يترتب عليها الثواب أو العقاب. أما بموجب الاعتقاد بتناسخ الأرواح فلابد من الاعتقاد بأن الحيوانات والنباتات قادرة على العمل بجسمها وبفكرها.

٥ - أن الحياة بعد كل حياة إذا لم تكن إلا نتيجة لأعمالنا فى الحياة الجارية فإن ذلك يستلزم أن لا تكون نتيجة أعمالنا السيئة إلا سيئة، وما دمنا قد نلنا هذه النتيجة السيئة فى حياتنا الأولى فكيف أصبح من الممكن أن تصدر أعمال صالحة عن هذه

النتيجة السيئة؟ من اللازم أن لا يصدر عنها إلا أعمال سيئة، وأن تكون نتيجتها فى الحياة الثالثة أسوأ منها فى الحياة الثانية، وهكذا لابد أن تتردى روح إنسان فاسق فى دورة التناسخ من طبقة سافلة إلى طبقة أسفل منها، ومن المحال أن يصبح الحيوان أو النبات إنساناً. فلنا أن نتساءل هنا: أن الذين هم أفراد النوع البشرى الآن قد أصبحوا من النوع البشرى نتيجة لأعمال صالحة.. من أية طبقة قد برزوا إلى حيز الوجود؟

تأثير عقيدة تناسخ الأرواح فى الحياة المدنية:

وهناك إلى هذه الأسباب أسباب كثيرة أخرى من المحال بناء عليها أن يقبل العقل السليم عقيدة تناسخ الأرواح ويقول بصحتها. لأجل هذا فإن الإنسان على قدر ما نال من التقدم والرقى فى ميدان العقل والعلم صارت تبطل فى نظره عقيدة تناسخ الأرواح، إلا أنها ما بقيت الآن - كما قلت - إلا فى أمم همجية أو متخلفة جداً فى ميدان الرقى العلمى والعقلى ومن الحقيقة - من هذا - أن هذه العقيدة مثبطة للهمم، ومميتة لروح التقدم، ومنها قد نشأت عقيدة (أهنسا) التى هى مدمرة بكل معنى الكلمة لحياة الإنسان الفردية والجماعية، بحيث أن أمة إذا أصبحت قائلة بها أنعدمت فيها روح الإقدام والجرأة والشجاعة والجندية، وأضمحلت فيها القوى الجسدية، وأصبحت محرومة من كل ما يغذى فيها القوى الجسدية. وبذلك لا يضعف أفرادها باعتبار القوى الجسدية فحسب، بل يضعفون كذلك باعتبار القوى الفكرية والذهنية، ويكون من نتيجة هذا الضعف المضاعف أن تضرب عليها الذلة والمسكنة ولا تحيا فى الدنيا إلا مغلوبة على أمرها وأخيراً إما أن تنقرض عن صفحة الوجود، أو تنضم إلى أمم غالبة قوية أخرى.

والمضرة الأخرى لعقيدة تناسخ الأرواح أنها تعادى المدنية والحضارة وتجر الإنسان جرا إلى الرهبانية وترك الدنيا. أنه لما يعتقده القائلون بهذه العقيدة أن الشهوة هى أصل كل فساد فى الأرض، وهى التى تلوث الروح بالذنوب والآثام، ولأجلها تنتقل الروح من قالب إلى قالب، وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة، فالإنسان إذا أودى بها وقضى عليها ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبها، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ ويقولون: ليست هناك سبيل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه لأنه من المحال إذا انشغل الإنسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشئونها الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا، والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها، والنتيجة اللازمة لذلك (يقولون) أن من أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ فعليه أن ينعزل عن الدنيا، ولا يسكن إلا فى الغابات، ورؤوس الجبال وكهوفها، وإن لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من

الخلاص من دورة التناسخ، ويستعد للانضمام إلى طبقات الحيوانات والنباتات.. فهل لهذه الفكرة أن تكون مساعدة للإنسان على ترقية المدنية والحضارة بحال؟ وهل لأمة أن تنال الرقى والتقدم فى الدنيا إذا آمنت بهذه العقيدة.

لا شك أن عقيدة تناسخ الأرواح ببعض وجوهها أقل سوءاً من الاعتقاد بأن الموت إنما هو فناء محض، لأن الإنسان توجد فيه بحكم الفطرة رغبة فى البقاء إلى الأبد، فعسى أن تبرد فيه هذه الرغبة بعقيدة تناسخ الأرواح إلى حد ما، ومع هذا فإن هذه العقيدة توجد فيها فكرة الجزاء والعقاب والنتائج المرضية وغير المرضية للأعمال، فعسى أن تكون هذه العقيدة على أساس هذه الفكرة سنداً يستند إليه قانون خلقى صالح قوى.. ولكن من الحقيقة التى لا مجال فيها للريب والمكابرة كما قلنا مراراً من قبل، أن عقيدة التناسخ إذا كانت متنافية مع العلم والعقل، كانت عقبة فى سبيل تقدم المدنية والحضارة، فليس لها بحال أن تؤثر على ذهن الإنسان وتتملك عليه عقله وعاطفته بحيث تظل قائمة بقوة سواسية فى كل مرتبة من مراتب الارتقاء العلمى والعقلى وفى كل مرحلة من مراحل تقدم المدنية والحضارة. والأمر إذا كان كذلك فإن بقاء هذه العقيدة كنظرية فلسفية محضة فى بطون الكتب لا يكاد يرجع بجدوى على نظام الأخلاق فى ثباته واستمراره وخلوده، لأنها لا ترجع عليه بجدوى إلا فى ما إذا خرجت من الكتب واستولت على القلوب والأذهان واعتقد بها الناس اعتقاداً جازما قويا. ومع هذا فإن هذه العقيدة تفقد قيمتها الخلقية من حيث نتجتها النهائية لأن الإنسان إذا كان على يقين من أن دورة التناسخ إنما تدور كما يدور الدولاب فى الآلة لابد أن تظهر النتيجة المقررة فيها لكل فعل من أفعاله، وليس له بحال أن يغير هذا الفعل ونتيجته بتوبة ولا استغفار ولا كفارة ولا بأى شيء آخر.. إذا كان الإنسان على يقين من هذا فإنه إذا اقترف الذنب مرة يقع فى سلسلة الذنوب والمعاصى إلى آخر أيام حياته، ويرسخ فى ذهنه أنه ما لم يكن باستطاعته أن يخلص نفسه ولو بأية حيلة من الحيل من الانفلات إلى حيوان أو نبات فما له أن يكبح جماح نفسه ولا يستنفد ما يملك من الجهود لإشباعها بلذات حياته الإنسانية ومباهجها؟

عقيدة الحياة الآخرة:

إنك حتى الآن قد عرفت ما يرى فى عاقبة الدنيا والإنسان ونهاية أمرهما دينان من أديان البشر وقد عرفت كذلك أن هذين الدينين لا يصحان عقلاً، ولا يردان بشيء مقنع على ما ينشأ فى ذهن الإنسان من الأسئلة الفطرية عندما يرى فى هذه الدنيا آثار الاختلال والزوال والفناء والتهدم، ولا يصلحان ليكونا سنداً يستند إليه نظام للأخلاق صحيح قوى، وتعال لنعرفك الآن على ما يرى فى هذا الشأن دين آخر:

يقول هذا الدين :

١ – كما أن لكل شيء في الدنيا أجلاً ينتهي إليه لا محالة بصفته الفردية، وكما أنه مع انتهائه إليه تظهر فيه آثار الفناء والزوال والاختلال، كذلك أن لنظام العالم الذي نعيش فيه أجلاً لابد له أن ينتهي إليه . ولابد مع انتهائه إليه أن يعتريه الفناء والزوال والاختلال، ويحل محله نظام آخر تكون قوانينه الطبيعية مختلفة عن قوانينه الطبيعية .

٢ – وأن الله سبحانه وتعالى بعد اختلال هذا النظام سيقيم محكمته التي سيحاسب فيها عباده حساباً دقيقاً، وأن الإنسان يومئذ سينال حياة جسدية جديدة، ويتمثل بين يدى ربه، وهناك يوزن ويفحص بكل دقة ما قد كسب من الأعمال في حياته الأولى، ويجزى عليها جزاء أوفى، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

٣ – وأن ليست حياة الإنسان الدنيوية هذه إلا مقدمة لحياته الآخرة، فهي حياة طارئة مؤقتة وتلك حياة خالدة سرمدية، وهذه ناقصة وتلك كاملة وأن الأعمال لا تترتب كل نتائجها في هذه الحياة المؤقتة، وستترتب على أكل وجوهها في الحياة الآخرة، فعلى الإنسان أن لا يطمح ببصره إلى مجرد النتائج العاجلة الناقصة، بل الخادعة في معظم الأحيان، التي تترتب على أعماله في هذه الحياة الدنيا، وإنما عليه أن يحدد القيم لأعماله على اعتبار هذه السلسلة الكاملة بنتائج الأعمال وثمراتها .

والدين الذي يقول بهذا هو الدين الذي قد عرضه الأنبياء عليهم السلام، ويدعو إليه القرآن ويقيم الدلائل على صحته وحقانيته . وقبل أن نتكلم على نتائج هذا الدين في الأخلاق ومرتبته وأهميته في الحضارة الإسلامية يجمل بنا أن نرى ما هي دلائله وبراهينه؟

الطريق الصحيح للتحقيق العقلي :

هل للإنسان من حياة بعد موته؟ . . سؤال إنما يتعلق بما وراء حدود حواسنا وتجاربنا الحسية، وكل ما نشاهده هو أن إنساناً بينما كان يتنفس ويتحرك بإرادته إلى ما قبل لحظات إذا به قد حرم كل أثر من آثار الحياة، وقد غاب عن جسده شيء هو الذي كان قد هيأ لهذه المادة الصماء غير النامية وغير المتحركة قوة النمو والحركة . أما أين قد ذهب ذلك الشيء؟ وهل أنه لا يزال موجوداً أم قد انعدم بعد انفصاله من الجسد وهل سيرتبط بهذا الجسد أو بجسد آخر مثله مرة أخرى أم لا؟ . . لا نستطيع الجواب على هذا السؤال بالنفي ولا بالإثبات معتمدين على حواسنا أو عيوننا التجريبية لأن ذلك الشيء بالذات ما كنا أحسسنا به من قبل ولا نحسه الآن . فمما يجب أن نكون على ذكر منه منذ بداية البحث : أن هذا السؤال لا علاقة له أصلاً

بالعلوم التجريبية، لأن هذه العلوم إن كانت لا تستطيع أن تجيب عليه بالإثبات، فإنها لا تستطيع كذلك أن تجيب عليه بالنفى سواء بسواء، غاية ما لها أن تقول هو أنها لا تعرف ماذا يكون بعد الموت، ولكنها إذا جاءت عن طريق اللا إرادية الحاصلة وقالت أنها ما دامت لا تعرف ماذا يكون بعد الموت، تعرف أنه لا يكون شيء بعد الموت، فلا يكون ذلك منها إلا الاستهزاء بالعقل واعتداء لحدوده..

والوسيلة الأخرى عندنا للعلم بعد الحواس هى التفكر، إذ أن الإنسان دائمًا يأبى أن يقيد نفسه بالمحسوسات والمرئيات ومن عين ما تقتضيه فطرته أن يستعين بما فيه من قوى الفكر والتأمل ويحاول الكشف عن الحقائق المستترة وراء المحسوسات والمرئيات، وهذا الجهد الفكرى هو المعبر عنه بـ(التفكر) وله طريقان:

أولهما: أن تغمضوا أعينكم عما فى الآفاق وفى أنفسكم من الآثار والآيات وألا تقيموا لها ما تستحق من الوزن ولا تستخرجوا النتائج (هكذا) إلا من المقدمات العقلية، ولا تتبعوا إلا الأحكام العقلية فهذا ميدان الفسلفة القياسية المجردة، وهو أصل كل فساد فى الأرض، ومنه نبعت كل المذاهب الفلسفية التى إذا ارتبك فيها الإنسان مرة فإنه قلما يجد سبيلاً للخروج من مجاهل الفكر والخيال، والتى عليها قامت تلك العقائد المتضاربة عن الله وملائكته، ونظام العالم والحياة بعد الموت التى إنما هى نتيجة التخبط فى الظلام واتباع الوهم والظن والخرص والتخمين.

وثانيهما: أن تفتحوا أعينكم وتشاهدوا ما فى الآفاق وفى أنفسكم من الآثار الحاملة للمشعل فى الطريق إلى الحقيقة، وتتوصلوا باستعانة العقل السليم والفكر الصحيح إلى الحقائق الكامنة فى أعماق هذه الآثار. وفى هذا الطريق تسير الفلسفة جنباً إلى جنب مع العلوم التجريبية، وهذا أيضاً وإن لم يكن طريقًا يقينيا للوصول إلى الحقيقة ولكنه – بصرف النظر عن الهداية السماوية – هو الطريق الوحيد لدى الإنسان للوصول إلى الحقيقة وبه وحده من الممكن أن يصل إليها أو يدنو منها على الأقل، بشرط أن يكون على قوة غير عادية للمشاهدة والاعتبار، وتكون قواه للإدراك لطيفة مرهفة، وتكون به أهلية كافية للفكر والتأمل، وعلى هذا الامتزاج بين المشاهدة والفكر، يتوقف رقى الإنسان وتقدمه فى الحكمة النظرية. إن النظريات التى تقوم على أساسها اليوم بناء الحكمة، وأن المبادئ التى لا يخطو طالب العلوم التجريبية خطوة بدون الاعتقاد بها.. ما منها نظرية واحدة ولا مبدأ واحد يقوم على مجرد المشاهدة والتجربة، بل الذى تقوم عليه كل نظرية من هذه النظريات، وكل مبدأ من هذه المبادئ هو ذلك القياس العقلى الذى تستخدم فيه المشاهدت والتجارب كالمواد الأساسية. ومن ذلك أن ليس قانون الفطرة، ولا قانون الجاذبية، ولا سلسلة العلة

والمعلول، ولا نظرية النسبية.. ولا قانون الاختيار الطبيعى، ولا أى قانون أو مبدأ آخر قد آمن به كبار الحكماء والعقلاء وعلماء العلوم الطبيعية.. إلا نتيجة للفكر فى مشاهدة الآثار والمظاهر، واستخدام القياس العقلى، وإلا فإن أحداً لم يشاهد هذه القوانين ولا هذه المبادئ مشاهدة حسية.

ثم إن النتائج التى يستخرجها أحد من الحكماء بمشاهدته وقياسه يكون على يقين من صحتها على قدر ما يكون أحد من عامة الناس على يقين من صحة شىء إذا شاهده بأم عينه مشاهدة حسية، ولكن على الرغم من هذا فإن هذا الحكيم مهما كان عظيماً ما هراً لا يستطيع أن يجبر على الإيمان بهذه النتائج أحداً غيره إذا كان ينكرها إنكارا، لأن أحداً ما لم يشاهد الآثار والمظاهر بذلك النظر الخاص الذى قد شاهدها به ذلك الحكيم نفسه، ولم يستخدم فى ذلك من الفكر والروية والتأمل ما قد استخدمه هو لا يستطيع بحال أن يتوصل الى هذه النتائج. أما عامة الناس فلا سبيل لهم للدخول فى عالم الحكمة وإحراز الرقى والتقدم فيه إلا بواحدة هى أن يؤمنوا عن ظهر الغيب بالنتائج التى قد استخرجها حكيم يعتمد على حكمته وبصيرته دون أن يكونوا بأنفسهم قد توصلوا إلى النتائج بمشاهدتهم وقياسهم.

رسخت فى ذهنك هذه المقدمة فإنه لابد أن تكون على يقين من صحتها إذا ما أردت أن تفهم بيان القرآن واستدلاله فى ما يتعلق بعالم ما وراء الطبيعة. والحقيقة أن كثيرا من الأغلوطات والمفاهيم الخاطئة لا تنشأ فى ذهن الإنسان إلا لعدم رسوخ هذه المقدمة فى ذهنه.

اعتراض المنكرين للحياة الآخرة:

إن القرآن لما عرض على الناس عقيدة الحياة الآخرة ودعاهم إلى الإيمان بها، ما كان حجة منكريها فى ذلك الزمان إلا عين حجة منكريها فى زماننا الحاضر، وذلك أن هذه هى الحجة الوحيدة التى يستطيع أن يحتج بها منكرو هذه العقيدة فى كل مكان وزمان، وخلاصتها: أن الحياة بعد الموت أمر لا يقبله العقل والقياس، إذ كيف لنا أن نؤمن بأن الذين قد ماتوا وتحولوا إلى عظام ورفات وبليت أجزاء أجسادهم أو تبعثرت فى الفضاء والتراب والمياه سيرزقون الحياة مرة جديدة.

﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ [السجدة: ١٠].

﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** ﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴾ [سورة ق: ٣].

﴿ **مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ [يس: ٧٨].

أسلوب القرآن في الاستدلال :

أما الأسلوب الذى اختاره القرآن للاستدلال فى هذا الشأن فهو أنه يدعو الناس قبل كل شيء إلى أن يشاهدوا ما الآفاق وفى أنفسهم من آيات الله وآثار حكمته ومظاهر قدرته، ويعملوا فيها الفكر والروية يقول : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣] .

﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [الأعراف : ١٨٥]

﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٥] .

فالذى تنبه عليه هذه الآيات أنكم أيها الناس لستم من القوة والعظمة بحيث من الممكن لكم أن تروا رأى العين ما لا يأتى تحت حواسكم، أو تعرفوه على حقيقته بالاعتماد على تجربة من تجاربكم، غير أنكم إذا فتحتم أعينكم، ورأيتم آيات الله وآثار حكمته، ومظاهر قدرته الماثلة أمام أعينكم ليل نهار وتفكرتم مع ذلك حتى فى خلقكم وأنفسكم، وبذلتم جهوداً صادقة مخلصة للوصول إلى الحقيقة بالتأمل فى كل هذه المحسوسات والمرئيات . فإنه لابد أن يتبين لكم أن كل ما يقال لكم فى هذا القرآن، وعلى لسان الرسول الصادق الأمين هو الحق .

إمكان الحياة الآخرة :

ثم إن القرآن يدعو الناس إلى التفكر والتأمل فى ما هو أكثر بداهة وجلاء، حتى من هذه الآيات والآثار نفسها، ويستدل به على أن ما ترونه بعيداً عن العقل والقياس ليس ببعيد عنهما فى واقع الأمر، وإن كان بعيداً عن عقولكم وقياسكم وفى ذلك يقول :

﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ﴾ [الرعد : ٢] .

﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا** ﴾ [النازعات : ٢٧] .

وفى هذا استشهاد بآثار الأجرام السماوية على أن الله الذى خلق هذا الكون العظيم البديع المتسق، والذى قانونه المهيمن قد شد أكبر سيارة فى هذا النظام – وأعظم بعددها – لقيوده وأغلاله، والذى قدرته تحرك هذه السيارات العظيمة بنظام مترابط لا يلحقه خلل ولا انتكاس ولو للحظة من البصر، والذى قوته قد أقامت

طبقات الكون على دعائم غير مرئية وغير محسوسة تعجزون عن إدراكها.. ليس بعاجز عن أن يهلك خلقاً حقيراً مثلكم ثم ينشئه نشأة جديدة، وإنكم وإن كنتم تظنون به هذا الظن فما ذلك منكم إلا ظن باطل، يقول جل جلاله:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [الاسراء: ٩٩].

وهو بعد ما يدعونا إلى التفكر في آياته وآثار قدرته وحكمته في السماء هكذا، يدعونا إلى التفكر في آياته وآثار قدرته وحكمته في عالمنا القريب، أي الأرض، وفي ذلك يقول:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٣٣]

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩] ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩]

وهو بعد ذلك يدعونا إلى التفكر في ما قد وضع في ذات أنفسنا من آياته وآثار قدرته وحكمته ويستدل بها على قدرته على إحياء الموتى، وفي ذلك يقول:

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١].

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥].

﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٦].

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٤٠].

والقرآن بعد دعوتنا إلى التفكر في الآيات والآثار القريبة من مشاهدتنا وقياسنا، يعرض علينا دليلاً قاطعاً له أوثق ما يكون من العلاقة بعقلنا العام.

يقول: إن إخراج الأحياء من العدم إلى عالم الوجود أصعب من خلقها مرة أخرى على صورتها الأولى بعد افتراقها وانتشار أجزائها. فالذى لم يعجز عن هذا العمل الأصعب، كيف له أن يعجز عن هذا العمل الأهون؟ ومثال ذلك أن رجلاً إذا كان قادراً على اختراع السيارة وقد صنعها فعلاً، فهل يتفق مع العقل أن يقال إنه ليس بقادر على تركيب أجزاء السيارة على صورتها الأولى بعد افتراقها وفكاكها؟ عليكم أن تعرفوا قياساً على هذا المثال أن الله بارى الكون، وصانع السموات والأرض الذى قد خلقكم من العدم..

من السفاهة أن تقولوا بالنسبة له إنه عاجز عن خلقكم مرة أخرى بعد موتكم. وفى ذلك يقول عز من قائل:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ١٩].

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سورة ق: ١٥]

وبعد ذلك لا يبقى إلا شبهة واحدة هى أن الموتى الذين قد فنيت أجسادهم كيف من الممكن أن ترد إليهم هذه الأجساد عينها، فمنهم من مات غرقاً فى الماء وصار كل جزء من جسده غذاء للأسماك وحيوانات الماء الأخرى، ومنهم من مات حرقًا أو قد أحرق بعد الموت وتحول كل جسده إلى رماد ودخان، ومنهم من دفن فى الأرض وامتزج كل جزء من جسده بالتراب، فكيف من الممكن أن يعاد إليه جسده الأول وتنفخ فيه روحه الأولى؟

هذه الشبهة قد حاول الناس دفعها بقولهم إنه ليس من اللازم لإعطاء الروح الحياة الجسدية أن يعاد إليها جسدها الأول إذ من الممكن أن تعطى جسداً آخر مشابها لجسدها الأول. أما القرآن فيقول: إن الله قادر أن يعيد إليها عين جسدها الأول لأن أجزاء جسدها الأول ما انعدمت، وإنما هى موجودة على صورة مبعثرة، إما فى الفضاء أو فى السماء، أو فى التراب، أو فى أجساد النباتات والحيوانات، أو أجرام المعادن، وأن الله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، ويعلم موضع كل جزء فيهما له قدرة تامة على أن يجمع هذه الأجزاء المبعثرة مرة أخرى، ويخلقها على صورتها الأولى.

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [سورة ق: ٤]

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

والمقصود من كل ما قيل فى هاتين الآيتين رفع الاستبعاد الذى ينكر الناس على أساسه الحياة الآخرة. أنه ليس السبب الحقيقى فى إنكارهم أنهم قد علموا على وجه قاطع إيجابى.. بتجربة أو مشاهدة أو بوسيلة أخرى من وسائل العلم اليقينى أن لا حياة للإنسان بعد موته، وإنما الأساس الذى يقوم عليه إنكارهم أن عقلهم ضيق لا يتسع لتصور البعث بعد الموت، وأنهم ما شاهدوا منظره بأعينهم، وأنهم معتادو الرؤية أن من مات مرة لم يرجع إلى الحياة، لأجل هذا إذا قيل لهم أن الذين قد ماتوا ستعاد إليهم الحياة رأوا فى هذا الأمر المخالف لعادتهم أمراً مستبعداً لا يتفق مع العقل والقياس. ولكن تقدموا خطوة أخرى فى سبيل الفكر والتأمل يزل عن نفوسكم هذا الاستبعاد والاستغراب، وتروا أن ما كان محالاً من قبل قد أصبح من الممكن الآن. إن الأمور التى ترونها الآن ممكنة بل واقعة إنما السبب فى كونها كذلك أنكم معتادون لمشاهدة وقوعها. إن انشقاق البذرة فى بطن الأرض وظهورها بصورة شجرة عظيمة، وأن دخول قطرة من الماء فى الرحم وخروجها منه بصورة إنسان. وأن تولد الماء بإجتماع غازين، وتحوله إلى البخار، وتحول البخار اليه بترتيب خاص مرة بعد أخرى. وان جريان مئات الملايين من النجوم السيارة كالكرات فى فضاء العالم الواسع، وارتباط بعضها ببعض بدون ما علاقة مادية مرئية، بحيث لا يدب دبيب التغير والانقلاب فى نظامها للحركة والدوران.. أنتم معتادون لرؤية كل هذه الأمور، ولذا لا ترون فيها ما يدعو إلى العجب والحيرة، وإنما ترونها أموراً عادية، ولكن لو كنتم لا تشاهدونها، وكنتم مستأنسين

بنظام آخر غير نظامها، لرأيتم أنها أبعد ما تكون عن العقل والقياس، وأنكرتم إمكانها بكل شدة. وهب أن المريخ لا تنبت فيه الأشجار، وعلى هذا إذا قيل لسكانه أن بذرة صغيرة حينما تدفن فى الأرض تخرج منها شجرة باسقة تكون أعظم من جرمها الابتدائى بآلاف بل بمئات الآلاف من المرات، ثم تتوالد فيها آلاف مؤلفة من البذور مثلها.. إذا قيل ذلك لسكان المريخ لم يكن عجبهم منه أقل من عجبكم من البعث بعد الموت، ولابد أن يقولوا باستحالته كما تقولون باستحالة البعث بعد الموت، ولكن من الظاهر أن ليست هذه الفتوى بعدم الامكان بناء على العلم وإنما هى بناء على جهل، وليست هى بنتيجة لبعد النظر وحصافة الفعل، وإنما هى نيتجة لقلة النظر وقصور العقل. وما استبعادكم أنتم للبعث بعد الموت إلا مثل هذا، إنكم إذا أدركتم حقيقة استبعادكم، علمتم أحسن علم أن شيئاً إذا كان بعيداً عن عقلكم وقياسكم فما بعده هذا بدليل كاف على استحالته وعدم إمكانه فى واقع الامر، أولا ترون أن شيئاً من الأشياء التى يخترعها الإنسان اليوم كانت بعيدة عن عقله وقياسه قبل مئة سنة، ولكن الذى قد شهدت به الحوادث إن لم تكن هذه الأشياء التى يراها الإنسان اليوم بعيدة عن عقله وقياسه، سوف تخرج إلى عالم الظهور على يد الإنسان نفسه بعد قرن أو قرنين، وسوف يثبت ظهورها إن لم تكن مستحيلة ولا غير ممكنة.... إذا كانت هذه هى حقيقة العقل وحقيقة بعد الاشياء عنه أو قربها منه، فلا يصح الحكم على شيء بأنه مستحيل أو غير ممكن لمجرد أن عقل الإنسان المحدود لا يتسع له.

إن أول خطوة لإثبات شيء إذا كان خافياً على النظر وكان وراء حدود الحواس، أن يثبت إمكانه. فالقرآن بإزالة استبعاد الحياة الآخرة بأسلوبه البليغ قد أثبتها أمراً ممكنا.

والخطوة الثانية بهذا الشأن أن نثبت حاجة الإنسان إلى ذلك الشيء حتى يعترف به عقله ويقول: إن وجوده أولى من عدمه.

نظام العالم قائم على الحكمة:

إن إثبات حاجة الإنسان إلى الاعتقاد بالحياة الآخرة يتوقف – فى حقيقته على جواب السؤال التالى: (هل إن هذا الكون صنعه حكيم مدبر، أم أنه نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق دون ما حكمة ولا تدبير)؟

يقول الإنسان المادى الدائن بالعلوم التجريبية: إن هذا الكون ما صنعه حكيم مدبر وإنما قد نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق، وإنما يجرى بكل أجزائه – بما فيها الإنسان كآلة متحركة بذاته، وفى اليوم الذى ينتهى فيه التعاون والتعامل بين المادة والطاقة (**Euergy**) يختل فيه هذا النظام. من الظاهر أن نظاما مثل هذا إذا كانت

الطبيعة العمياء هى التى تسيره بدون ما علم ولا عقل ولا شعور ولا إرادة ولا حكمة، فمن العبث أن يبحث فيه عن نوع من الغاية والهدف، لذا فإن العلوم التجريبية المادية ما أخر من حدود وظيفتها التعليل المبدئى (**Tebological Caumtion**) لآثار الكون وحكمته فحسب بل قالت إن هذا الطريق للفكر ما هو إلا لغو وسخافة، وقالت أن هذا الكون وكل موجود من موجوداته، وكل فعل من أفعاله هو بدون ما غاية ولا هدف. فما العين للنظر وإنما النظر نتيجة لترتيب خاص للمادة يوجد فى العين، وما المخ بأداة للفكر والتأمل والشعور والعاطفة، وإنما تفرز الأفكار والعواطف والإرادات من مادته كما تفرز الصفراء من الكبد، ويفرز البول من الكلية، فمن الخطأ (تقول هذه العلوم) أن تقدر الأعمال الطبيعية الصادرة غن الأشياء غايتها والمقصود من وراء تركيبها وأن يبحث فى وجودها عن حكمة أو تدبير أو عقل.

إذا آمن الإنسان بهذه النظرية واعتقد صحتها فلا مبرر البتة لأن يشعر فى نفسه بحاجة إلى حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، لأن الكون إذا كان كل نظامه إنما يجرى فى نظره بدون ما غاية ولا هدف على يد طبيعة عمياء لا علم لها ولا شعور، فإنما هو بمنزلة لعبة كلعب الأطفال، وما كل موجود من موجوداته إلا عبث سيفنى كما يفنى كل عبث بعد انتهائه، ومن المستبعد ان تكون طبيعة عمياء مثل هذه متصفة بالعدل فيرجى منها حساب أو عدل، وإذا فرضت أنها متصفة بالعدل فما دام الإنسان إنما يلعب فى يدها كلعبة لا تملك لنفسها إرادة ولا اختيار فضلاً عن أن تعمل شيئًا بإرادتها واختيارها فاللازم أن لا تكون عليه تبعة أى عمل من أعماله الصالحة أو غير الصالحة، كما لا تكون على السيارة تبعة سيرها فى أية جهة صحيحة أو غير صحيحة. وإذا ارتفع السؤال عن التبعة فمن العبث السؤال عن العدل أو الظلم، وعن الجزاء أو العقاب فى هذه الحياة الدنيا نفسها، فضلاً عن أن يعترف له بحياة أخرى بعد هذه الحياة.

ولكن هذه النظرية لا تتفق مع العقل، وحتى الآن لم يعرض على صحتها دليل عقلى ولا شهادة علمية، ولباب كل ما قيل حتى الآن فى الدفاع عنها أننا لا نرى أحداً قد خلق هذا الكون ويعنى بتسييره، ولا نعقل ما إذا كانت ثمة غاية من وراء خلقه، وإنما نراه سائرًا بدون ما صنع قادر، وليس من الممكن أن ندرك غاية لسيره كما أننا لسنا بحاجة إلى إدراكها.. ولكن ليس الجهل بالعلة الفاعلية أو العلة الغائية دليلاً على عدمهما. هب أن طفلاً يرى آلة الطبع تسير وتعمل ولا يدرك لتحقيق أية غاية قد سيرت هذه الآلة فيظنها مجرد لعبة سائرة بدون ما غاية ولا هدف. يرى أن هذه الآلة كما ينشأ منها الصوت، وتتحرك أجزاؤها، وترتجف الأرض من تحتها، كذلك تخرج

منها الأوراق مطبوعة نتيجة لحركتها، ولا يعقل أن فعلاً واحداً من هذه الأفعال أى: خروج الأوراق منها مطبوعة هو الغاية المقصودة من وراء هذه الآلة، وما سائر أفعالها الا نتائج طبيعية لحركتها، وما نظره من القدرة على المشاهدة بحيث يحس ما فى أجزائها من التركيب والترتيب والنظام، ويعقل أن الصورة التى قد خلق عليها كل جزء من أجزائها، وأن الموضع الذى قد وضع فيه، هى الصورة المتناسبة لأدائه وظيفته فى جسد الآلة، أن لا يخلق إلا على تلك الصورة، ولا يوضع إلا فى ذلك الموضع، فبناء على كل ذلك يظن ذلك الطفل الغبى أن تلك الآلة إنما نشأت باجتماع قطع من الحديد على سبيل الصدف والاتفاق، ولا يعرف برؤية أفعال الآلة وترتيب أجزائها أن الذى قد صنعها لابد أن يكون حكيماً قادراً، فإنه لحكمته وقدرته قد صنعها باتقن أسلوب وعلى أقوم صورة بحيث ليس جزء من أجزا ئها عبثاً ولا غير متناسب مع وظيفته.. قل لى بالله ربك.. إن ذلك الطفل غير العاقل إذا أقام على مشاهدتها هذه الآلة من آلات الطبع نظرية قائلة بأن الآلة ليست فيها علة فاعلية، ولا علة غائية، ولا قد صرف فى صناعتها شيء من الحكمة، ولا قد روعيت فيها غاية من الغايات، فهل لرجل عاقل بالغ أن يعترف بأن ذلك الطفل قد أقام نظرية صحيحة فى ما يتعلق بحقيقة تلك الآلة؟

وكل هذا إن كان غير صحيح بشأن آلة الطبع فأولىٰ به أن يكون غير صحيح بشأن هذا الكون العظيم الذى تدل كل ذرة فيه على صانعه وقدرته وإرادته وحكمته. ومهما يقل الطفل الناقص العقل، القصير النظر، فما لرجل عاقل إذا شاهد ما فى هذا الكون من الآيات والآثار بعين العبرة والبصيرة أن يشك ولو للحظة واحدة أنه من المحال أن ينشأ ويسير بدون ما حكمة ولا علم ولا إرادة، نظام مثل هذا وهو من الإحكام والاستقامة والتناسب والاتساق بحيث ليس فيه شيء عبثاً، وليس فيه شيء أكثر مما تدعو إليه الحاجة، ولا أقل منه، وكل جزء فيه موضوع فى محله اللائق به كما تقتضيه الحاجة، ولا يعترى نظامه فتور ولا ضعف ولا نقص.

من المحال أن يكون النظام القائم على الحكمة مهملاً بدون ما غاية، والدلائل التى قد أقامها القرآن الكريم على حاجة الإنسان إلى الحياة الآخرة لا تقوم كلها إلا على الفكرة القائلة: بأن صانع هذا الكون حكيم قادر لا يخلو كل فعل من أفعاله من الحكمة، ومن المحال أن يعزى إليه شيء لا يجتمع مع الحكمة. يقول القرآن بعد إقامته هذا الأساس لفكر الإنسان:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان: ٣٨ – ٤٠].

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم: ٨].

فالذى تشير إليه هذه الآيات أنكم أيها الناس إن كنتم تظنون أن نظام هذا الكون لمجرد أن يبقى سائراً إلى أجل ثم ينعدم بدون ما نتيجة، فكأنكم تظنونه فعلاً عبثاً سخيفاً، أو لعبة كلعب الأطفال، ولا تظنونه صادرا عن حكيم قادر أبداً، وأنكم ان كنتم تعتقدون أن الله هو الذى قد صنع هذا النظام وأن الله حكيم خبير، فعليكم أن تستعينوا بما قد آتاكم الله من قوة العقل والنظر لتعرفوا أن ليس شيء من موجودات هذا العالم بخارج إلى حيز الوجود بدون ما غاية، ولا بداخل فى حيز العدم بدون ما نتيجة، ولا سيما الإنسان، فإنه أفضل خلائق الله على وجه الكرة الأرضية، وشخصيته ذات الشعور هى حاصل هذه الكرة الأرضية ونتيجة كل حركاتها وتحولاتها وتطوراتها، وقد أوتى العقل والفكر والنظر والفهم وقوة الارادة والاختيار بكمال حكمه.. من المحال أن تكون الغاية المقصودة من وراء خلقه مجرد أن يعيش فى هذه الدنيا عدداً من السنين كآلة من الآلات ثم يدخل عالم الفناء والعدم بموته..

مصير نظام العالم على مقتضى الحكمة:

ولما تقدم.. علم أن ليس هذا الكون قد خلق عبثاً، وليس شيء فيه بدون ما نتيجة. فالسؤال الثانى الذى يثور بهذا الصدد هو: أى مصير آخر غير العدم المطلق عسى أن يكون لهذا الكون على مقتضى الحكمة؟ فى آيات القرآن جواب تفصيلى على هذا السؤال لا يكاد يسمع به العقل السليم إلا ويطمئن اطمئناناً كاملاً، ولكن من اللازم لفهم هذا الجواب أن نكون – أولاً – على بينة من عدة أمور هى:

١ – أن كل ما فى عالم الوجود من الآيات والآثار تشهد شهادة ناطقة بأن ليس لهذا العالم من تغير ولا تطور إلا وهو متجه إلى جهة الارتقاء، وأن ليس المقصود من كل حركة من حركاته، أو كل دورة من دوراته إلا أن يساق النقص إلى الكمال، وأن تضفى على الأشياء صورها الكاملة بعد القضاء على صورها الناقصة.

٢ – وبما أن قانون الارتقاء هذا إنما يعمل عن طريق التغير لذا فإن كل كمال أو ارتقاء فى هذا العالم لابد أن يتقدمه فساد أو قل – بكلمة أخرى – أنه لما يقتضيه

خروج كل صورة جديدة إلى حيز الوجود أن تفسد الصورة السابقة وأن زوال الصورة الناقصة يكون مقدمة لخروج صورة جديدة كاملة إلى حيز الوجود. وهذا التغيرات والتطورات وإن كانت تحصل فى هذا العالم فى كل حين، ولكن هناك تغير جلى بارز يحصل بعد تغيرات خفية متعددة، ويكون هناك فى هذا التغير الجلى البارز فساد جلى بارز هو الذى نعبر عنه فى عرفنا العام بـ(الموت) أو (الزوال) كما أننا نعبر بـ(العمر) عن المدة الواقعة بين خروج شىء على عالم الوجود وبين موته أو فساده القطعى.

٣ – أن كل صورة من الصور تبغى لنفسها محلاً خاصاً يناسبها، ويناسب طبيعتها ولا ترضى بأن تسكن محلاً لا يناسبها ولا يناسب طبيعتها. فالصورة النباتية – مثلا – لا ترضى بأن تسكن جسداً حيوانياً فإنه محل لا يناسبها ولا يناسب طبيعتها. ولا تطلب الصورة الإنسانية غير الجسد والنظام الجسدى الخاص الذى قد خلق للإنسان. وعلى هذا إذا أريد أن يعطى شىء صورة راقية فمن اللازم أن يهدم المحل الذى كان بنى لصورته القديمة الناقصة. وأن يبنى لصورته الجديدة الراقية محل جديد يناسبها ويناسب طبيعتها.

٤ – إذا فهمت شمول قانون الارتقاء، وإحاطته بكل أجزاء العالم، فقد سهل عليك أن تعرف أن هذا القانون كما يشمل كل أجزاء العالم كذلك يشمل نظام العالم نفسه. فالنظام الذى نشاهده الآن لهذا العالم لا ندرى كم من نظم قد خلت من قبله منذ بدء سلسلة الخلق والابداع، وكم من مراحل الارتقاء التدريجى قد اجتازتها سلسلة الوجود حتى انتهت إلى نظامنا الحاضر الذى نشاهده الآن، وكذلك ليس نظامنا الحاضر الذى نشاهده الآن بآخر نظام قد انتهت إليه سلسلة الوجود، ولن تجتازه إلى نظام آخر بعده، بل لابد له أيضاً عندما يبلغ آخر كمالاته الممكنة ولا يعود به صلاح لقبول درجة للكمال أعلى أن يتهدم ويقوم على أنقاضه نظام آخر يختلف عنه فى قوانينه، ويكون به صلاح لقبول درجات كمال الوجود ومراتبه العليا.

٥ – إننا إذا نظرنا فى النظام الحاضر للعالم بعين الجد والاهتمام، علمنا بدون ما ريب أنه نظام ناقص يحتاج إلى مزيد من الكمال.. فما حقائق الأشياء فيه إلا متلوثة بالأرجاس المادية حتى قد نزلت إلى درجة الأوهام،، ونالت ملابساتها المادية درجة الحقائق، وأن شيئًا على قدر ما هو لطيف، وعلى قدر ما هو مجرد من الأرجاس المادية هو خفى مستتر وراء حدود العقل والشعور فى هذا النظام، وأن الجسد المادى له وزن فى هذا النظام، ولكن لا وزن فيه البتة للحقائق اللطيفة البسيطة. ومن الممكن أن

يوزن فيه الحديد والحجر والخشب، ولكن لا مجال في قانونه لوزن العقل والرأى والفكر والنية والخيال والعزم والعاطفة والوجدان، ومن الممكن أن توزن فيه أو تكال فيه الحبوب والفواكه، ولكن لا مجال فيه لوزن المحبة والنفرة، ومن الممكن أن يقاس فيه الثوب ولكن لا مجال فيه لقياس البغضاء والحسد، ومن الممكن أن تحدد فيه قيمة الدنانير والدراهم، ولكن لا مجال فيه لتحديد قيمة العاطفة التى تحث الإنسان على السخاء أو البخل.

هذه بعض من وجوه النقص فى هذا النظام، ولأجل نقصه هذا يتطلب العقل نظامًا أرقى منه لا تكون فيه الحقائق بحاجة إلى الملابس المادية، وإنما تكون بارزة يراها كل من أراد معرفتها بدون ما حجاب ولا حاجز، وتنتصر فيه اللطاقة على الكثافة، ويتجلى فيه كل ما هو خاف مستتر الآن.

ومن وجوه النقص – كذلك – فى هذا النظام أن القوانين المادية لها الغلبة ولها الكلمة المسموعة فيه، ولذا لا يحدث فيه للأفعال الا النتائج المتفقة مع مقتضيات القوانين المادية، ولا تحدث فيه النتائج المتفقة مع العقل والحكمه. فمثلاً إذا أوقدت فيه ناراً احترق بها كل شيء قابل للاحتراق. وإذا صببت فيه ماء ابتل به كل شيء قابل للابتلال، ولكنك إذا عملت فيه صلاحاً لا تظهر فيه نتيجته بصورة الصلاح على كل حال كما يقتضيه العقل والحقيقة، وإنما تظهر بالصورة التى تقتضيها القوانين المادية ولو كانت هى صورة الفساد المعاكسة تماماً لصورة الصلاح.

والعقل عندما يشاهد هذا النقص فى النظام الحاضر يوجب أن يقوم بعده نظام أرقى منه تجرى فيه القوانين العقلية بدلاً من القوانين المادية، وتظهر فيه للأفعال نتائجها الحقيقية التى لا تظهر فى النظام الحاضر لغلبة وسيادة القوانين المادية فيه.

مصير نظام العالم حسب بيان القرآن:

إذا أدركت هذه المقدمات فتعال لنريك الآن ماذا يجيب به القرآن على سؤالك عن مصير نظام العالم فى ما قد صور فى آياته من مشاهد القيامة والنشأة الآخرة يقول:

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

ثم إنه يصور أهوال يوم القيامة بكلماته التالية:

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار: ١ - ٤].

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١ - ٣].

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ [المرسلات: ٨ - ١٠].

﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [القيامة: ٧ - ٩].

﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤].

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ففى كل هذه الآيات إشارات واضحة إلى أن ليس نظام العالم الجارى بنظام خالد سرمدى وإنما هو نظام مؤقت له أجل معلوم إذا انتهى إليه فلابد له من الاختلال والتهدم، ولابد إذن للشمس والقمر والأرض وما إليها من السيارات التى هى أركان هذا النظام، ويقوم هذا النظام بدورانها أن تتناثر ويحتك بعضها مع بعض، ويخبو نورها، ولابد إذن أن يتهدم هذا البناء المؤقت، ولكن ليس معنى ذلك أن نظام العالم سيعدم بذلك عن الوجود، وتنتهى سلسلة الخلق والابداع ، وإنما معناه أن سيبدل عندئذ الطور الخاص الذى نشاهده الآن لعالم الوجود، ويقام مقامه نظام آخر، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

نظام الحياة الآخرة:

أما كيف ومن أى نوع سيكون ذلك النظام؟. فيعلم من الكيفية التى وردت فى القرآن الكريم بدون ما ريب ولا إبهام أن ذلك النظام إنما سيكون صورة ارتقائية لنظامنا الحاضر، وإكمالاً لنقصه على عين ما يقتضيه العقل سيكون فيه كل شيء من الوزن والكيل والقياس، ولكن لا للأشياء المادية وإنما للمعانى المجردة، والحقائق اللطيفة البسيطة. سيوزن فيه الخير والشر، والبر والاثم، والفضيلة والرذيلة، والإيمان والكفر، والأخلاق والملكات، وستقاس فيه النيات والإرادات، والعواطف والهواجس والأحاسيس وسائر أفعال القلوب. لا يحاسب فيه الإنسان على وزن الخبز الذى أطعمه

أحداً من الفقراء والمساكين ولا على عدد الدراهم التى أعطاها أحداً من السائلين والمحرومين وإنما يحاسب فيه على النية التى حملته على هذا الكرم والسخاء، وأن القانون فيه لا يكون ماديًا، وإنما يكون معنويًا. وفى ذلك يقول جل من قائل:

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[الزلزلة: ٦ – ٨].

وسيبرز فى ذلك النظام كل شيء هو مستتر لا نراه بأعيننا فى نظامنا المادى الحاضر لسبب غلبة القوانين المادية وقيودها، وستبدو فيه الحقائق اللطيفة والمعانى المجردة بدون ما حجاب ولا حاجز كما هو على حقيقته:

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [سورة ق: ٢٢].

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

وفى ذلك النظام ستحدث للأفعال نتائجها الحقيقية المتفقة مع العقل والعدل، ولا تجرى فيه القوانين المادية ولا الأسباب المادية، كما هى تجرى اليوم فى نظامنا الحاضر ولتأثيرها لا تحدث هناك للأفعال نتائجها الحقيقية العقلية، لذا فإن كل شيء يحول هنا دون أن يظهر العدل والقسط وتترتب على الأفعال نتائجها الحقيقية العقلية.. سيعود بدون ما تأثير فى نظام. الحياة الآخرة. فمثلاً إن المال والجاه، والحسب والنسب، والكياسة والفطانة، وسلاطة اللسان، وكثرة الوسائل المادية وقوة الحلفاء، والأصدقاء والأقرباء وسعيهم وشفاعتهم، كل هذا من الأسباب التى تنقذ الإنسان فى نظامنا الحاضر من نتائج كثير من أقواله وأفعاله، ولكنها ستفقد تأثيراتها فى نظام الحياة الآخرة، فلا يترتب فيه على كل فعل من أفعال الإنسان، ولا على كل قول من أقواله، إلا النتيجة التى يجب أن تترتب عليه على مقتضى من العقل والعدل والحق والصواب.

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس : ٣٠] .

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٥] .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ٤٨] .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١ - ١٠٣] .

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨] .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة : ٣] .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٧] .

ومن وجوه النقص فى نظامنا الحاضر أن ليست فيه قسمة جوائز الطبيعة ومواهبها بقائمة على حسن الأعمال وإنما هى قائمة على عوامل لا تكون فيها الأعمال الذاتية، ولا الاستعدادات الشخصية إلا بمنزلة سبب من الأسباب، فطالما تتغلب عليها عوالم كثيرة أخرى، وتوهن تأثيرها بل تزيله إزالة كلية، لأجل هذا فلا دخل هنا للاستحقاق الذاتى فى قسمة جوائز الطبيعة والسواء بها، وإن كان فإنما هو بمنزلة الصفر، من الممكن هنا أن يترفل الإنسان فى النعيم، ويتمتع بالرغد والرفاهية، واللذات المادية، والخيرات الدنيوية على الرغم من ظلمه وفسقه وفجوره طول حياته، كما أنه من الممكن هنا أن يقضى كل حياته بالفقر والبؤس، والفاقة والمصائب والآلام الدنيوية، على رغم التزامه الصلاح والأمانة والتقوى والفضيلة طول حياته . .

فهذا النقص يحتاج إلى الإكمال، يقضى العقل والعدل والحكمة أن يترقى هذا النظام حتى يتحول إلى نظام كامل بكل معنى الكلمة، إلى نظام لا تكون فيه قسمة الجزاء والعقاب والثواب والعذاب إلا بالعدل والقسط، ولا ينال فيه كل شخص إلا ما يستحقه بناء على حسنه أو قبحه الذاتى. يقول القرآن: أن نظام الآخرة لا يكون إلا نظاما كهذا:

﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [سورة ص: ٢٨].

﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا** ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

﴿ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ** ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١].

فهذا هو نظام الحياة الآخرة كما يقرره دين محمد ﷺ ودين سائر أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم وسلامه. أما الذين يرون فى هذا الكون وفى نظامه لعبة كلعب الأطفال، أو حادثا من الحوادث بدون ما غاية ولا نتيجة، ولغزاً من الألغاز المرتبكة ما بدأ إلا بالعبث ولا ينتهي إلا بالعبث. فلا يجدون فى عقيدة الحياة الآخرة هذه، ولا فى دلائلها وشواهدها شيئا جديراً بالقبول والتسليم. وأما الذين يعتقدون أن هذا الكون ما نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق، وإنما نشأ بخلق الله العظيم الحكيم، فهم عندما ينظرون فى دلائل عقيدة الحياة الآخرة وشواهدها يعترفون بأنه من اللازم أن يحدث بعد نظام الكون الحاضر نظام آخر بمثل هذا الطور وبمثل هذه الكيفية ويقولون: إنه لما قد ثبت الامكان للحياة بعد الموت فإن ثبوت الحاجة إلى هذا الممكن أكثر من الكافى للإيمان بأن الله العلى الحكيم لابد أن يوجد هذا الممكن اللازم للوجود..

فالذى قد ثبت بما قلنا فى هذا المبحث أن ليست الحياة الآخرة التى قد دعا الإسلام إلى الإيمان بها ببعيدة عن العقل كما يعتقدها الماديون عامة، وإنما هى من عين ما يقتضيه العقل والعلم والحكمة، ومن المحال أن تهز هذا الإيمان وتحدث فيه الثلمة مرحلة من مراحل رقى العلم، بشرط أن يكون ذلك الرقى رقياً حقيقياً لا رقياً سطحياً صورياً.

حاجة الإنسان إلى عقيدة اليوم الآخر:

قد ثبت مما قلناه حتى الآن أن وقوع حياة أخرى بعد حياتنا الدنيا الحاضرة ممكنة

وأنه أقرب إلى القياس، وأنه عين ما تقتضيه الحكمة وأن العقل - بشرط أن يكون سليماً - والعلم - بشرط أن يكون حقيقياً - لا يمنعان أبداً الإيمان بعقيدة اليوم الآخر كما قد عرضها القرآن، وإنما يحملان الإنسان عليها حملاً ويدفعانه إليها دفعاً . .

ولكن ينشأ هنا سؤال آخر هو: ما هي حاجتنا إلى الإيمان بعقيدة اليوم الآخر هذه. ولماذا قد جعلها الإسلام من أركان الإيمان؟ ولماذا قد أكدها القرآن، وأبدأ وأعاد في دعوة الناس إليها حتى جعلها مما لا يدخل الإنسان في الإسلام بدونه، وهدده إذا أنكرها بحبط كل ما كسب من الأعمال طول حياته؟ . . . لذا تأملنا عقيدة اليوم الآخر كما قد عرضها القرآن الكريم وأنعمنا فيها النظر بعين الجد والاهتمام، علمنا على اليقين أنها ليست مجرد نظرية فلسفية بل لها أوثق ما يكون من العلاقة بأخلاق الإنسان وأعماله في جملة شعب حياته وتتغير بها وجهة نظره في الحياة الدنيا رأسا على عقب، فمعنى إيمانه بها أن لا يرى نفسه في هذه الدنيا كائناً حراً طليقاً، ولكن كائنا ذا تبعة ومسئولية، ولا يؤدي جملة أعماله وتصرفاته إلا على شعور تام من أن عليه تبعة كل حركة من حركاته، وأنه مسئول عنها في حياته المقبلة، وأن سعادته أو شقاءه في مستقبله لا يتوقف إلا على أعماله الصالحة أو السيئة في حاضره، ومعنى عدم إيمانه بها أن يرى نفسه كائنا حرًا طليقًا لا تبعة عليه ولا مسئولية، ولا يؤدي جملة أعماله ولا يرتب جملة تصرفاته في هذه الحياة الدنيا إلا على الظن بأنه ليس مسئولاً عنها، وأنه لا تترتب عليها نتيجة حسنة أو سيئة في حياة أخرى بعد هذه الحياة.

ومن التأثير اللازم لخلو ذهن الإنسان من عقيدة اليوم الآخر أو عدم إيمانه بها، أنه لا يطمح ببصره إلا إلى النتائج المترتبة على أعماله في هذه الدنيا، ولا يحكم على شيء بالمنفعة أو المضرة الا باعتبار هذه النتائج فحسب، إنه يحترز عن أكل السم ولا يضع يده في النار لماذا؟ لأنه يعلم أنه لابد أن يذوق وبال هذين الفعلين ونتائجهما السيئة في حياته هذه. وأما الظلم والكذب والخيانة والغدر والغيبة والزنا وما إليها من الأفعال التي لا تظهر نتائجها السيئة في هذه الحياة كاملة فإنما يحترز عنها على قدر ما يخاف من ظهور نتائجها السيئة في حياته هذه، ولا يتردد في اقترافها حينما لا يرى نتيجة سيئة تترتب عليها، أو يرجو أن ينال بها منفعة مادية في هذه الدنيا نفسها. وجملة القول: أن فعلاً معنوياً لا تكون له في نظره قيمة معنوية معينة، وإنما حسنه أو قبحه متوقفا في نظره على حسن أو قبح نتيجته المترتبة عليه في هذه الحياة الدنيا نفسها.

أما الذي يقول بعقيدة اليوم الآخر. فلا يطمح ببصره إلى النتائج العاجلة المترتبة على أعماله في هذه الحياة وحسب، وإنما يطمح ببصره إلى نتائجها الحقيقية المترتبة

عليها فى حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، ولا يحكم على فعل بالمنفعة أو المضرة إلا على اعتبار تلك النتائج فهو كما يكون على يقين من أن السم مهلك والنار مؤلمة، وكذلك يكون على يقين من أن الظلم والكذب والغدر والخيانة والزنا كلها أفعال مهلكة مؤلمة، وهو كما يعتقد أن الخبز والماء نافعان، كذلك يعتقد أن العدل والأمانة نافعان، ويقول بنتيجة معينة يقينية لكل فعل من أفعاله، ولو لم تظهر فى هذه الحياة أصلاً بل ولو ظهرت فيها على صورة معاكسة تماماً، وتكون فى نظره للأعمال المعنوية قيم معنوية معينة لا يدب إليها دبيب التغير والتبدل بالمنافع أو المضار العاجلة الظاهرة فى هذه الدنيا، ولابد أن يكون الصدق والعدل والوفاء بالعهد حقاً فى نظامه للأخلاق، ولو كانت لا ترجع عليه فى هذه الحياة الدنيا إلا بالمضار والمصائب والآلام. ولابد أن يكون الكذب والظلم والغدر إثما فى نظامه للأخلاق، ولو كانت ترجع عليه بالمنافع والملذات والمباهج فى هذه الحياة الدنيا.

ليس معنى خلو ذهن الإنسان من الاعتقاد باليوم الآخر أو إنكاره إياه أن ذهنه خال من نظرية من النظريات المتعلقة بعالم ما بعد الطبيعة، وإنما معناه أنه غافل عن أن له شخصية ذات تبعة ومسئولية، وأنه يعتقد نفسه كائنا بريئاً من كل تبعة ومسئولية، وأنه راض بالحياة الدنيا مطمئن بنتائجها الناقصة، بل الخادعة فى أكثر الأحيان، وقد انصرف بوجهه عن المنافع والمضار الحقيقية النهائية، وأقام الوزن للمنافع والمضار العاجلة المؤقتة، وعلى اعتبارها فحسب جعل لأفعاله قيما معنوية لا تستقر على شيء معلوم، وقد حرم نفسه ضابطة خلقية راشدة محكمة لا تنضبط إلا بشعوره بالتبعية ورعايته للنتائج الآجلة، واعتباره للقيم الخلقية المستقرة على شيء معلوم، وهكذا قضى على حياته مغترا بمظاهر الدنيا الخلابة، تحت ضابطة واهية قد تقررت فيها المضرة الحقيقية منفعة، وتقررت المنفعة الحقيقة مضرة، وتحول فيها المعروف الحقيقى إلى منكر، وتحول المنكر الحقيقى إلى معروف. تلك هى النتائج لإنكار الحياة الآخرة قد بينها القرآن بكل شرح وتفصيل. وإنك إذا تتبعت آيات القرآن فى هذا الشأن علمت أحسن علم أنه ما من مفسدة ولا منكر يحدث فى أخلاق الإنسان وأعماله لعدم إيمانه باليوم الآخر، إلا وقد عنى القرآن بذكره ونعى على أصحابه.. فمن ذلك مثلاً:

١ - أن الإنسان يحسب نفسه حراً لا تبعة عليه، ويرى أن حياته بمجموعها بدون نتيجة، ولا يعمل فى الدنيا إلا على الظن بأن لا رقيب عليه ولا محاسب.

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ [البلد: ٥ – ٧].

٢ – وأنه إنما يرنو ببصره إلى ظاهر من الحياة الدنيا، ويحسب أن النتائج السطحية العاجلة التى تظهر لأعماله فى هذه الدنيا هى نتائجها الحقيقية النهائية، وأنه لاغتراره بها لا يتبنى لنفسه إلا آراء فاسدة وأفكارا باطلة.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ [يونس: ٧].

﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [الأعراف: ٥١].

٣ – وأن النتيجة اللازمة لاغتراره بالحياة الدنيا، ونظره إلى ظاهرها فحسب، أنه ينعكس فى نظره مستوى القيم المعنوية للأعمال.

فالأعمال التى هى ضارة باعتبار نتائجها النهائية يراها نافعة لنظره إلى نتائجها العاجلة فحسب، والأعمال التى هى نافعة باعتبار نتائجها النهائية يراها ضارة لنظره إلى نتائجها الابتدائية فحسب. لكل هذا فإن جهوده الدنيوية تحيد عن المناهج الصحيحه والطرق المستقيمة وتضيع فى الطرق الخاطئة المضلة:

﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل: ٤].

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [الكهف: ١٠٣ – ١٠٥].

٤ – وأنه من المحال عليه أن يقبل دين الحق ويتبع أحكامه. فكلما عرضت عليه

الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ودعى إلى التزامها فى حياته رفضها رفضاً. وكلما عرضت عليه العقائد الباطلة، والأعمال الخاطئة مال إليها ميلاً وافتتن بها افتتاناً، لأنه ما من طريق من طرق الدين إلا هو متطلب للتضحية بكثير من المنافع والمباهج واللذات فى الحياة الدنيا، وأصل أصوله التضحية بالمنافع الدنيوية المؤقتة فى سبيل المنافع الأخروية الخالدة. ولكن الإنسان بإنكاره الحياة الآخرة لا يحسب المنافع إلا منافع هذه الحياة الدنيا. فلا يستعد بحال للتضحية بها، ولا يسلك طريقا من طرق الدين إذا كان يدعوه إلى إيثار منافع الحياة الآخرة عليها. ولذا فإن إنكار الحياة الآخرة واتباع دين الحق على طرفى نقيض. وفى ذلك يقول عز من قائل:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦ - ١٤٧].

٥ - وأن إنكار الآخرة أن تنطبع به حياة الإنسان بجملة نواحيها من معنوية وعملية:

﴿ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٣٩].

٦ - ولابد أن تفسد معاملاته مع الناس:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [المطففين: ١ - ٥].

ولابد أن يتحجر قلبه، ويضيق نظره، فيعرض على العبادة الالهية، ولا يعمل شيئا إلا رئاء الناس أو ابتغاء منفعة من المنافع المادية العاجلة:

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [سورة الماعون].

وخلاصة القول أن اعتداء الإنسان حدود الحق، ووقوعه فى الآثام والمنكرات والمعاصى، نتيجة لازمة لإنكاره اليوم الآخر:

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [المطففين : ١٢] .

وهذه النتائج لخلو ذهن الإنسان من الاعتقاد باليوم الآخر أو إنكاره إياه لا يكاد يكابر فيها عاقل، وخاصة أننا لما قد شاهدنا بأم أعيننا ثمرات تلك المدنية التى إنما أقيمت على أساس الغاية المادية، والافتتان بظاهر من الحياة الدنيا، وهى خالية خلواً كلياً من الاعتقاد باليوم الآخر، ما بقى لنا مجال لإنكار الحقيقة القائلة بأن الإنسان لا يستطيع أن يميل إلى التدين وعبودية الحق والتزام مكارم الأخلاق إذا كان منكراً للحياة الآخرة .

هذا وتعال لنريك الآن أن الإسلام عندما يريد إقامة هذه الأمور . . وأنه عندما يدعو الإنسان إلى أخلاق وأعمال صالحة لابد له لالتزامها من التضحية بكثير من المنافع والمباهج واللذات المادية . . وأنه عندما يعظ الإنسان بعبادة ربه، وتزكية نفسه مما لا يرى نتيجة تترتب عليه فى هذه الدنيا، بل وكثيراً ما يرى آلاماً شديدة ومصائب فادحة تترتب عليه فى نفسه وجسده . . أو أنه عندما يميز الحرام من الحلال والخبيث من الطيب فى جملة شئون الحياة، وفى تمتع الإنسان بأسباب الدنيا ووسائلها . . وأنه عندما يدعو الإنسان إلى التضحية بأغراضه الشخصية، ورغباته النفسية، بل وبماله ونفسه لتحقيق الأغراض الروحية والمعنوية . . وأنه عندما يريد أن يقيد حياة الإنسان الفردية والجماعية بضابطة خلقية قد حددت فيها قيمة معنوية معلومة لكل عمل من الأعمال بصرف النظر عما يترتب عليه من المنافع أو المضار فى هذه الحياة الدنيا . . فقل لى بالله هل كان له أن يلقى النجاح فى إقامة دين كهذا أو شريعة كهذه دون أن يدعو الإنسان إلى الاعتقاد باليوم الآخر؟ وهل كان يرجى من الإنسان مع خلو ذهنه من هذا الاعتقاد أن يتلقى تعليما كهذا بالقبول والإذعان؟ والجواب على هذا كان بالنفى – وهو بالنفى بدون ما شك – فقد لزم الاعتراف بأنه لابد لإقامة نظام دينى كهذا وضابطة خلقية كهذه من أن يلقى فى روع الإنسان قبل كل شىء آخر الاعتقاد بالحياة الآخرة، وبناء على هذا السبب قد جعل الإسلام هذا الاعتقاد من أركان الإيمان، وأكد الدعوة إليه بما لم يؤكد به الدعوة إلى اعتقاد آخر حاشا الإيمان بالله . . وتعال لنريك الآن : على أية صورة قد عرض الإسلام عقيدة اليوم الآخر، وما هى الآثار والنتائج التى تترتب عليها فى أخلاق الإنسان وأعماله وسلوكه العام فى الحياة .

١ – إيثار الآخرة على الدنيا :

إن أول شىء قد عنى القرآن عناية خاصة بإرساخه فى ذهن الإنسان هو أن الدنيا إنما هى منزل مؤقت لإقامته وسكناه، فما الحياة هذه الحياة الدنيا، وإنما ستأتى بعدها حياة أخرى هى خير منها وأبقى، ومنافعها أوفر وأعظم من منافعها، ومضارها أشد

وآلم من مضارها، وعلى هذا فالذى يغتر بمظاهر هذه الدنيا ويفتتن بمتعها ولذاتها، ويسترسل وراء منافعها ومباهجها، ويبذل للحصول عليها جهودا تضيع عليه نعيم الحياة الآخرة ولذاتها ومنافعها، فما تجارته هذه إلا تجارة خاسرة. وكذلك أن الذى لا يرى الخسارة والمضرة إلا خسارة هذه الحياة ومضرتها. ويبذل لاجتنابها جهوداً يستحق بها الخسارة والمضرة فى الحياة الآخرة، فهو فى حقيقة أمره يرتكب أعظم حماقة، ولا تجتمع فعلته هذه مع ما يقتضيه العقل والعلم والحكمة.. وهذا الموضوع قد بينه القرآن، وأفاض القول في ما لا يأتي تحت الحصر والاستقصاء من آياته.

راجع على سبيل المثال الآيات التالية:

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾[التوبة: ٣٨].

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ – ٤١].

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

والمقصود من هذا التعليم الذى قد عرضه الإسلام بأبلغ أسلوب بيانى إيثار الآخرة على الدنيا. والتضحية بالمنافع العاجلة فى الدنيا، للحصول على السعادة الأبدية فى الآخرة، واحتمال المضار والخسائر والمصائب والمحن المؤقتة فى الدنيا، لاتقاء الخسران الأبدى فى الآخرة.. أن من كان يؤمن بالقرآن ورسالة محمد ﷺ عليه أن يؤدى عن طواعية نفسه لا تحت ضغط أو إكراه كل فعل قد قرره الله ورسوله وسيلة من وسائل الفلاح والسعادة فى الآخرة، ويجتنب كل فعل قد قرره سبباً من أسباب الشقاء والخسران فى الآخرة بصرف النظر عما أن كان فى الدنيا نافعًا أو ضاراً.

٢ - الحساب والجزاء على الأعمال:

والأمر الثانى الذى قد عنى القرآن بإرساخه فى ذهن الإنسان وإلقائه فى روعه هو أن أى عمل يعمله فى حياته الدنيا، ولو بغاية من الأسرار هو مسجل عند الله فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنه سيعرض عليه هذا الكتاب فى محكمة الله العادلة يوم القيامة، حيث ستشهد عليه كل ذرة كان لها نوع من العلاقة بأعماله فى حياته الدنيا. حتى إنه ليشهد عليه لسانه وبصره ويداه ورجلاه وسائر أعضاء جسده، ثم أن أعماله هذه ستوضع فى ميزان القسط: أعماله الحسنة فى كفة وأعماله السيئة فى كفة فإن رجحت الأولى وجب له الفلاح والسعادة الأبدية وكانت الجنة هى مأواه، وإن رجحت الأخرى خسر خسراناً مبيناً وكانت دار البوار جهنم هى مأواه. ويبين القرآن مع ذلك أنه لا يحضر كل شخص فى تلك المحكمة إلا بمفرده وأنه لن ينفعه فيها سبب من الأسباب الدنيوية لا حسب ولا نسب، ولا خلة ولا شفاعة، ولا مال ولا بنون ولا قوة ولا جاه..

وهذا الموضوع أيضًا قد جاء بيانه فى القرآن بكل شرح وتفصيل بأبلغ أسلوب وأوقعه فى القلوب وها نحن أولاء نسرد فيما يلى آيات من القرآن جاء فيها بيان هذا الموضوع على سبيل المثال:

(أ) كيفية عرض الأعمال على الإنسان:

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ

وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[الرعد: ١٠ – ١١].

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

(ب) شهادة الجلود والجوارح وشهادة الإنسان على نفسه:

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢٢].

﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فهؤلاء هم الشهود الذين بهم سيحضر كل إنسان في محكمة الله العادلة ثم كيف يكون موقفه في تلك المحكمة؟ يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

(جـ) ولن ينفعه في تلك المحكمة حسبه ولا نسبه:

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الممتحنة: ٣].

ولا شفاعة شافع (إن كان كافرا):

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴾ [الشعراء: ٨٨].

(د) وستوزن فيها الأعمال ويحاسب عليها الإنسان ولو كانت مثقال ذرة:

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ولا يكون فيها الثواب ولا العقاب إلا على قدر الأعمال:

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨].

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

هذه هى شرطة الآخرة وهذه هى محكمتها يريد القرآن أن يلقى هولهما فى روع كل إنسان وما هذه الشرطة كشرطة الدنيا التى قد يعجزها الإنسان بحيلة من الحيل، ولا هذه المحكمة كمحكمة الدنيا التى قد يطلق فيها سراح الجانى لعدم توفر الشهود، أو لتوفر الشهود الكاذبين، أو لتأثيرات باطلة أخرى.. وإنما هى شرطة تراقب الإنسان فى كل حال من أحواله، وإنما هى محكمة لا يستطيع الجانى فيها أن يفلت من نظر شهودها ولو بأية حيلة من الحيل، وعندها كتاب سجل فيه كل عمل من أعماله بل وكل هاجسة من هواجسه. وأحكامها قائمة على العدل والقسط، فلا إمكان لأن يسلم فيها المسىء من عقابه، أو المحسن من ثوابه.

فائدة الاعتقاد باليوم الآخر:

وهكذا قد جعل الإسلام من الاعتقاد باليوم الآخر سنداً قوياً تستند إليه ضابطته المعنوية ونظامه الشرعى.. ففيه من جانب الترغيب العقلى فى أعمال الخير والصلاح. وفيه من جانب آخر الترهيب من العقوبة اليقينية على أعمال الشر والفساد، وأن ضابطته أو نظامه هذا لا يحتاج فى بقائه وقيامه إلى قوة مادية، ولا إلى سلطة حكومية، وإنما هو يضع فى نفس كل إنسان بواسطة الإيمان باليوم الآخر ضميراً حياً يرغبه بدون ما طمع أو خوف خارجى فى الفضائل والمعروفات التى قد قررها الإسلام فضائل ومعروفات، على اعتبار نتائجها الحقيقية النهائية، ويحذره من الرذائل والمنكرات التى قد قررها الإسلام رذائل ومنكرات على اعتبار نتائجها النهائية.

انظر فى القرآن تجد أنه كثيراً ما قد استعان بهذه العقيدة للدعوة إلى فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق فقد قيل مثلاً: ﴿ **اتقو الله** ﴾ ثم قيل بعده على الفور:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وإن القرآن ليحرض المسلمين على القتال وبذل المهج فى سبيل الله وذلك بأن يقنعهم أنهم إذا قتلوا لا يموتون وإنما ينالون حياة خالدة سرمدية:

﴿ ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ [البقرة: ١٥٤].

ويلقنهم الصبر على المصائب والمكاره، وذلك بأن يبين لهم أن الصابرين عليهم صلوات من ربهم ورحمة. وينشئهم على عاطفة الشجاعة والبسالة بأن يتلو عليهم نبأ بني إسرائيل من بعد موسى:

﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وينشئهم على تحمل المحن والشدائد، ومجابهة الأهوال والمخاوف مهما كانت بالغة من الفداحة والجسامة بأن يقول:

﴿ قل نار جهنم أشد حرًا ﴾ [التوبة: ٨١].

ويحثهم على الإنفاق فى سبل الخير بأن يقول لهم:

﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وينهاهم عن الشح والبخل بأن يلقى فى روعهم:

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ويدعوهم إلى رفع أيديهم عما فى أكل الربا من المنافع العاجلة بأن يقول لهم:

﴿ واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ويلقنهم الاستغناء عن متاع الدنيا وعدم الحسد للكفار على ما هم فيه من نعم الحياة الدنيا ومباهجها بأن يقول لهم:

﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد * لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨].

* * *

(١٠)

هذا هو اليوم الآخر كما عرضناه حتى الآن، نهايته الجنة أو النار، والطريق إلى الجنة الإسلام، والإسلام ضبط النفس عن الهوى، فاتباع الهوى هو الطريق إلى النار:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] .

روى أبو داوود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : (لما خلق الله الجنة قال لجبريل : اذهب فانظر إليها . فذهب فنظر إليها فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فحفها بالمكاره فقال : اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال : وعزتك لخشيت أن لا يدخلها أحد ، ولما خلق الله النار قال لجبريل : اذهب فانظر إليها . فذهب فنظر إليها فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها . فحفها بالشهوات فقال : اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فلما رجع قال : وعزتك لقد خشيت ألا يسلم منها أحد إلا دخلها) .

وروى الشيخان عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : (حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره) .

إن الطريق إلى النار ممتع : اختلاط رجال ونساء وتبرج بلا حدود . . وزنا ولواط ، وخمرة ، وسرقة ونهب ، وغش واختلاس ، وعقوق وعدم تأدية للواجبات ، وتحلل من التكاليف ولا مبالاة بقيمة ، وعداء لله والرسل ، واجتماع على الشهوات والباطل ، وإعطاء النفس ما تطلب ، وهروب من عبادة الله ، وركون إلى المادة والمحسوس ، وظلم وتعاون مع الظالمين . . وبكلمة واحدة ما تشتهيه النفس تعمله وما لا تشتهيه تتركه ، مهما ترتب على ذلك من آثار ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

أما الطريق إلى الجنة فشاق على النفس : ذكر وفكر ، وتوحيد وخدمة ، وتوكل وخوف ورجاء ، وضوء وغسل وصلاة وصوم وزكاة ، وحج وحجاب ، وعدم خلوة رجال بنساء ، فلا خمرة ولا امرأة إلا ما أحل الله من النساء ، وحمل النفس على أخلاق معينة ، وجهاد وعلم وعمل ، وصراع مع أهل الباطل ، وترك مجاملات ، وصبر على هذا كله وبكلمة واحدة إلزام النفس ما كلفها الله به مهما ترتب على ذلك من مشقة ، ولا مشقة فى الحقيقة ، فما كلفت النفس فوق طاقتها ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

﴿ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١١١].

فالله الله يا أيها الإنسان في نفسك، فقد بلغك رسل الله رسالات الله وأنذروك وبشروك وأقاموا عليك الحجة.

* * *

وبعـد:

هذه مؤيدات الإسلام:

عذاب ذنب وعقوبة رب لمن خالف في الدنيا والآخرة.

وحياة طيبة ونعيم دائم لمن أسلم وأطاع في الدنيا والآخرة..

﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٧]

* * *

وبهذا انتهى الفصل الرابع من (كتاب الإسلام).

وبهذا الفصل ينتهي الكتاب.

وبهذا تنتهي دراساتنا حول الأصول الثلاثة: **الله - الرسول - الإسلام**

والله نسأل أن يقبل.

* * *

وبعد: فلقد تحرينا فيما سقناه مما مر حسن الفهم عن الله والرسول ﷺ فإذا شط بنا القلم، أو زل فينا الفهم، فنستغفر الله، ونستغفره على كل حال، ولعل رجلاً صالحاً يمن علينا بما يرى من قصور فنشكره وندعو له.

* * *

محتويات الجزء الأول

الموضـــوع	الصفحة

الركن الثالث : الزكاة :

* * *

محتويات الجزء الثانى

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

* * *

محتويات الجزء الثالث

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــــوع **الصفحة**

الموضـــوع	الصفحة

* * *

محتويات الجزء الرابع

الموضـــوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع : ٣٧٩١ / ٨٦
الترقيم الدولى
I.S.B.N. 977-307-73-5

دار التوفيق النموذجية للطباعة ت : ٥١١٥٣٠٤